صَدِيقَتِي الَّتِي أُحْبَبْتُ دِينَهَا

"مَا وَرَاءَ الأَدْيَان!"

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ

اسم الكتـــاب: صَدِيقَتِي الَّتِي أَحْبَبْتُ دِينَهَا (مَا وَرَاءَ الأَدْيَان)

تـأليـــــــف: هَالَةُ عَبْدُ اللهِ الأَشْقَرُ القـطـــــع: 14*20

تدقيق لغوي: هَالَةُ عَبْدُ اللهِ الأَشْقَرُ سنـة النشـر: 2024

تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح

النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 20656 / 2024

الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 547 - 3

دار الزيات للنشر والتوزيع

المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-547-3

رواية

"مَا وَرَاءَ الأَدْيَان"

الجزء الثاني من

"صَدِيقَتِي الَّتِي أَحْبَبْتُ دِينَهَا"

دُكْتُورَةُ

هَالَةُ عَبْدُ اللهِ الأَشْقَرُ

إهداء

إلى غزة العزة.. أنتم شرف الأمة

كان عامًا يملأه الحزن والألم، عامًا يسكنه الفقد ويزهو بالشهداء الذين ارتقوا في سبيل الحق. لم نشهد فيه فرحة، ولم نتذوق طعم السعادة. نعم، تغلب علينا الأحزان، لكننا مؤمنون بأن الله هو الغالب على كل أمره، ولو كره الكافرون.

نحن نقف ثابتين بإيماننا بقضاء الله وقدره، مصداقًا لقول الله تعالى: "وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم." فالحمد لله على ما مضى، والحمد لله على ما هو قادم، ونسأل الله أن يكون النصر قريبًا.

يا أبطال الإسلام، سامحونا على تقصيرنا تجاهكم، لكن ثقوا أننا نرى النصر بعين اليقين، ونسأل الله أن يكون قريبًا. أنتم الأحرار الذين واجهتم الطغيان بشموخ، أما نحن، فمقيدون بقيود العالم الهمجي وعبيد لحساباته المظلمة.

إهداء

إلى أمي وأبي، اللذين زرعا في قلبي معنى الحب والتضحية، فأنتما الأساس الذي بنيت عليه حياتي. جزاكما الله عني خير الجزاء، وجعلني دائمًا فخورة بكما.

إلى إخوتي، أنتم السند الذي أستند إليه في كل وقت، القلب الذي ينبض معي في كل لحظة، ومصدر القوة التي لا تنضب.

إلى ابني البكر مروان، الذي أضاء حياتي بأول فرحة، وإلى إخوتك زكريا وهان زادة، أنتم النور الذي يضيء دربي والأمل الذي يحميني في كل تحدٍ. أحبكم أكثر من الكلمات.

إلى زوجات إخوتي: أمل، سحر، غادة، ونرمين، أنتن جزء من حياتي ومن سعادتي، أدام الله محبتكن في قلبي.

وأخيرًا، إلى هبة، أختي الحبيبة، وجودك في حياتي مصدر فرحٍ لا ينتهي.

توطئة

"ملك" فتاة مميزة، عاشقة للقراءة منذ نعومة أظافرها. اعتادت قضاء ساعات طويلة في مكتبة مدرستها، تجول بين رفوفها وتنهل من مختلف العلوم والمعارف التي تحتويها. من هنا بدأت رحلتها مع الكتب، وشيئًا فشيئًا توسعت اهتماماتها وانتقلت من مكتبة المدرسة في المرحلة الإعدادية إلى مكتبة قصر الثقافة في المرحلة الثانوية، حيث زاد وعيها وتفتحت مداركها. شيئًا فشيئًا بدأت تبرز لديها ميول خاصة نحو قراءة العقائد والأديان، وتحديدًا العقيدة النصرانية.

نضجها المبكر واطلاعها الواسع على هذه المواضيع أشعلا بداخلها رغبة في التعمق أكثر، ولم يكن حبها للمعرفة وحده هو دافعها، بل كانت تحمل في قلبها رغبة كبيرة في أن تنفع غيرها بما تعلمته. لم يكن الأمر سهلًا، فكثيرًا ما كانت تساؤلاتها ونقاشاتها تسبب لها مشكلات مع زميلاتها في المدرسة، وحتى في بيتها ومع جيرانها.

لكن شعورها بواجب الأمانة نحو توصيل الحقائق جعلها تصمد، وتتحمل التحديات التي واجهتها.

وبينما كانت في مسيرتها المعرفية، شاءت الأقدار أن تلتقي بعجوز نصراني، كانت هذه المقابلة نقطة تحول في حياتها. تمكنت، بعلمها وصبرها، من أن تكون سببًا في ختام حياة هذا الرجل بالتوحيد والإسلام. ولكن قصتها لم تنتهِ هنا، فقد استمرت مسيرتها مع حفيده، حتى أنه، بفضل الله، توقف عن قراءة الكتاب المقدس واكتفى بقراءة القرآن. في هذا الجزء من الرواية، سنكتشف ما حدث له لاحقًا بمشيئة الله تعالى.

«١»

ذكريات

عاد "جورج" إلى حيث أتى، إلى أمريكا، وكأن هناك يدًا خفية سحبت وجوده من حياتي فجأة. لم أكن مستعدة لهذا الانقطاع المفاجئ، ولم أفهم يومًا لماذا أغلق حسابه على "فيسبوك" بلا مقدمات، وكأنه أراد إغلاق فصل من حياته بأكمله. مضت الأيام بطيئة وثقيلة، رغم أنني كنت أحاول التركيز على دراستي، حتى أنهيتها وتخرجت، وبدأت رحلة عملي في مجال الصحافة والإعلام، تلك الرحلة التي كانت تشغلني بقدر ما كانت تزيد من تساؤلاتي وقلقي المستمر حول جورج.

لقد ظل طيفه حاضرًا في ذهني طوال ذلك العام، كلما حاولت أن أنساه، عادت ذكراه بشكل أقوى.

كنت أستعيد اللحظات التي قضيناها معًا، أتساءل باستمرار: "أين هو الآن؟ ماذا يفعل؟ هل يتذكرني كما أتذكره؟" أسئلة ظلت عالقة

في ذهني، وكأنها حبلٌ يربطني بماضٍ بعيد لا أملك منه سوى الذكريات. مرت الأيام ببطء قاتل، حتى جاء ذلك اليوم الذي كنت فيه في شرفة منزلي، أستعيد ذكرياتي مع العم "نعيم" وجورج، وكنت أحاول التمسك بما تبقى من هذه الذكريات كأنها طوق نجاة وسط بحر متلاطم من الغموض.

وفجأة، قاطع شرودي صوت مألوف، شخصٌ ما وضع يده على عينيّ من الخلف بصوت مرح ملأ المكان بهجة:

ـ مروان: من أنا؟

لم يكن صوته غريبًا، فقد كان أخي، مروان، يحاول كما دائمًا إضفاء روح الدعابة. ابتسمت رغم مشاعري المتأرجحة وقلت له بنبرة مليئة بالحب:

ـ وهل يخفى القمر؟! أخي الحبيب، مروان، السند والرفيق في هذه الدنيا.

ظللت أتحادث معه بحب، وتبادلنا الضحكات. حكيت له عن شغفي بالكتب، كيف كانت قراءتي ملاذي من كل ما يدور

حولي. شاركته بعض الأفكار التي كنت أفكر فيها، وتناقشنا حول أهمية القراءة والمعرفة، كأنني أحاول استعادة توازني الداخلي بالكلمات.

مع حلول الليل، ومع هدوء المكان، بدأت أشعر برغبة ملحة في العودة إلى الكتاب المقدس الذي أهداه لي العم "نعيم".

هذا الكتاب الذي لم يجرؤ أي شخص آخر في عائلتي على فتحه أو حتى الاقتراب منه.

دخلت غرفتي بخطوات بطيئة، وكأن شيئًا ما كان يجذبني نحو درج المكتب. أخرجت الكتاب من مكانه المخفي بين الروايات والمجلات، فقد كنت أخفيه هناك كي لا يثير الفضول أو التساؤلات غير المرغوب فيها. كنت أعرف أن أقاربي سيندهشون لو علموا أنني أحتفظ به بجوار الكتب الدينية على رف مكتبتي.

بدأت أقلب صفحات الكتاب حتى وصلت إلى "سفر الأمثال"، حيث توقفت في آخر مرة. قرأت بضع صفحات منه، وشعرت بشيء غريب يلمسني، شيء لم أستطع تحديده. أغلقت الكتاب بعد

ذلك، ووضعتَهُ في حقيبتي بعناية، وقررت بعد صلاة الاستخارة أن أواصل القراءة فيه.

في صباح اليوم التالي، حيث يكون الجو هادئًا والطبيعة في أوج جمالها، وسط زقزقة العصافير ورائحة الزهور العطرة، استيقظت على أشعة الشمس التي تسللت برقة عبر ستائر نافذتي، توقظني كأنها تهمس لي ببدء يوم جديد يحمل في طياته إجابات أو ربما أسئلة جديدة. نهضت، توضأت، وأديت صلاتي، ثم ارتديت ملابسي وحملت حقيبتي بعد أن تأكدت أن الكتاب بداخلها، وتوجهت إلى الحديقة المجاورة.

جلست على المقعد الخشبي وسط الخضرة الهادئة، بدأت بقراءة آخر ما توقفت عنده في جلساتي السابقة مع جورج، فقد قرأنا معًا أسفارًا عديدة مثل: (التكوين، الخروج، لاويين، العدد، التثنية، يشوع، القضاة، راعوث، صموئيل الأول والثاني، الملوك الأول والثاني، وأخبار الأيام الأول والثاني). كان لكل سفر حكاياته التي تشد العقل وتثير الأسئلة.

وفي رحلتي مع "سفر الأمثال"، بدأت أقرأ بتركيز، ولكنني سرعان ما توقفت عند نص صادم. كان النص في أمثال ٥:١٩ يقول: "الظَّبْيَةِ الْمَحْبُوبَةِ وَالْوَعْلَةِ الزَّهِيَّةِ. لِيُرْوِكَ ثَدْيَاهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَبِمَحَبَّتِهَا اسْكُرْ دَائِمًا."

تملكني الذهول. كيف يمكن لكتاب يُدعى مقدسًا أن يحتوي على مثل هذه العبارات التي تجمع بين الشعائر والأحكام وبين التغزل بجسد امرأة؟! أتساءل في نفسي: أهذا ما يسمونه قداسة؟!

أغلقت الكتاب المقدس ببطء بعد أن استوقفتني تلك العبارات المثيرة للشهوات. كنت أحاول التعامل مع النصوص بحيادية بحثية، لكن هذه العبارات جعلتني أتوقف لأتساءل بذهول: "كيف ترد مثل هذه الكلمات في كتاب يُفترض أنه موحى به من الله؟" راودتني لحظات من الصمت، وكأن عقلي كان يحاول أن يستوعب ما قرأته للتو.

لم أستطع تجاوز ما قرأته بسهولة. مشاعر الدهشة والرفض كانت تتصاعد داخلي. عدت إلى الكتاب مرة أخرى، ربما أخطأت أو فهمت النص بشكل خاطئ. لكن لا، النص كان واضحًا، والعبارة

التي قرأتها في "سفر الأمثال" كانت صريحة وصادمة: "ليُروك ثدييها في كل وقت، وبمحبتها اسكر دائمًا".

نظرت إلى الصفحة طويلًا، لا أصدق أن كتابًا يدّعون قدسيته يمكن أن يحتوي على مثل هذا الوصف الحسي.

كنت أتساءل: "كيف يمكن لشاب أو شابة أن يقرأوا هذا دون أن تتأثر غرائزهم؟ هل حقًا يقرأ الناس هذه النصوص ويتغاضون عنها، أم أنني أنا فقط التي أجد فيها ما يثير التساؤل والقلق؟"

أعدت التفكير في مقارنتي السابقة مع القرآن الكريم. ففي القرآن، النصوص دائمًا ما تأتي مترفعة عن الشهوات والغواية.

النصوص القرآنية تقود الإنسان نحو العفاف والطهارة، وتحثه على التقوى ومخافة الله. لم أكن أقارن بين الكتب السماوية من منطلق إيماني الشخصي فقط، بل كنت أبحث بحياد علمي، لكن الفارق كان جليًا.

استرسلت في القراءة، ومع كل صفحة كنت أزداد حيرة ودهشة. وجدت في "سفر الأمثال" نصًا آخر يتحدث عن امرأة زانية

تستدرج رجلًا بكلمات معسولة وتصف مشاعرها وأفعالها بدقة تثير الريبة. كان وصفها مليئًا بالرغبة الجسدية، دعوة صريحة للزنا والخيانة الزوجية. تساءلت: "كيف يمكن أن تكون مثل هذه النصوص جزءًا من كتاب يُفترض أنه يهدي البشر إلى الطريق المستقيم؟"

أخذت نفسًا عميقًا وزفرت بحدة. شعرت بثقل داخلي، وكأنني أحمل همًا لا يُحتمل. كنت قد قضيت سنوات طويلة في دراسة مقارنة الأديان، وكنت دائمًا أبحث عن الحق أينما كان، لكن هذه النصوص كانت تقودني إلى الشك في مصداقية من يدّعون قدسيتها.

قررت أن أضع الكتاب جانبًا لبعض الوقت. شعرت بأنني بحاجة إلى التأمل في كل ما قرأته. عُدت إلى شرفتي وجلست أتأمل السماء الصافية، وكنت أسترجع في ذهني بعض النصوص القرآنية التي طالما وجدت فيها السلام والسكينة. كنت بحاجة إلى الرجوع إلى القرآن، إلى تلك الآيات التي تُريح العقل والقلب معًا.

فكرت في قول الله تعالى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ" (الإسراء: ٩)، وكيف أن القرآن دائمًا ما يضع أمام الإنسان طريق الحق والخير. شعرت في تلك اللحظة أنني على الطريق الصحيح، وأن البحث الذي أقوم به ليس إلا وسيلة لتعميق يقيني بالإسلام.

ابتسمت لنفسي وقلت: "هذه التجارب، مهما كانت غريبة أو غير مفهومة، هي جزء من رحلتي كباحثة. ولعلها تزيدني يقينًا بأن الحق دائمًا واضح، مهما حاول الآخرون إخفاءه أو الالتفاف حوله."

«٢»

زيارة إلى جدي

كانت زيارتي لجدي أشبه بعودة إلى الحنين الدافئ والذكريات العذبة. اشتاق قلبي إليه، ولم أستطع مقاومة الرغبة في معانقته والجلوس معه. بمجرد دخولي إلى البيت وخطواتي تحمل مزيجًا من الشوق والفرحة، رأيته يجلس في زاوية البيت المعتادة. هرعت نحوه واحتضنته بشدة وكأني أعوض سنوات من الفراق.

قلت له بتأكيد وصدق: "آه يا جدي، كم أحبك وأشتاق إليك دائمًا. أشعر وكأنني أعود إلى جذوري وأعيش في وطني الحقيقي حين أكون معك."

ابتسم جدي وربت على كتفي بحنان غامر وقال: "أنتِ حبيبتي الغالية، نور عيني وبهجة قلبي."

شعرت في تلك اللحظة أن كل همومي وأحزاني تلاشت في حضنه. كان دفء كلماته كافيًا ليجعلني أشعر بالراحة.

بعد أن اطمأن على حالي سألني قائلًا: "يا ملك، كم أنا فخور بك بعد أن كتب الله على يديك إسلام شخص رغم حداثة عمرك. لقد فعلتِ ما عجزنا عنه، ودائمًا ما أحدث أصدقائي بفخر عن حفيدتي الجميلة."

ابتسمت بفخر وامتنان لجدي. سكت لبرهة ثم سألني عن جورج، حفيد السيد نعيم، الذي أخبرته عنه سابقًا بأنه بدأ قراءة القرآن وتوقف عن قراءة الإنجيل.

تنهدت وأنا أجيبه بحزن: "اختفى يا جدي بعد أن اقتنع بأن الإسلام هو الحق. لا أدري أين ذهب، لعله بخير."

حاول جدي طمأنتي وقال بثقة: "اطمئني، يا ملك. من يقرأ القرآن سيعود، فالقرآن يسكن في قلب من يقرأه ولا يستطيع الاستغناء عن حلاوته."

هززت رأسي موافقة، وفضّلت الصمت. ثم رأيت من بعيد ابنة خالي ريماس، صديقتي المقرّبة، مقبلة بابتسامتها المشرقة. هرعت نحوي، صافحتني وقبّلتني، ثم ذهبت إلى جدي وقبّلت يده ورأسه. ريماس هي صديقتي الوحيدة التي وهبني القدر إياها. فهي فنانة موهوبة، تعشق الرسم وتتمتع بذوق خاص في اختيار ملابسها

وألوانها. شعرت بسعادة لرؤيتها، لكنها بادرتني بعتاب محب قائلة: "أطلتِ الغياب هذه المرة يا ملك."

ثم أضافت محذرةً بمرح: "لا تكرريها أبدًا، وإلا..."

لكن صوت جدي قطع حديثنا قائلًا: "لا تضيعا الوقت، تعاليا معي إلى الأرض."

ذهبنا مع جدي إلى أرضه التي لطالما كانت جزءًا من حياته، حيث بذل فيها عمره كله. استرسل في الحديث عن الأشجار من حولنا، معرّفًا إيانا بأشجار المانجو، البرتقال، والخوخ، ثم أشار إلى خطوط الخيار والطماطم. لم ينسَ أن يقتطف لنا بعض الثمار الناضجة، وأخذنا نتسابق في غسلها وتناولها بشهية كبيرة حتى امتلأت بطوننا. ومع إصرار جدي على أن نأكل المزيد، كان يضع الفاكهة في أفواهنا مداعبًا وهو يقول: "أنتِ نحيفة يا ملك، وريماس كذلك، كجلد على عظم."

ثم أضاف ضاحكًا: "أنتما مثل خيال المآتة!"

ضحكنا جميعًا، واستجبنا لرغبته في إرضائه بمزيد من الأكل. بعد انتهاء جولتنا وعدنا إلى البيت، وحلّ الليل مع أذان المغرب.

ذهب جدي إلى المسجد، أما أنا وريماس فقد ولجنا إلى البيت وصلينا المغرب، ثم استسلمنا لنوم عميق بعد أن تناولنا من الفواكه والخضراوات ما أشبعنا تمامًا. تركنا زوجة خالي، أم ريماس، في المطبخ تعد الطعام وحدها، بينما غرقنا نحن في أحلامنا بعد يوم ممتع.

أفاقت عيناي بعد أذان العشاء على يد جدّي الحانية وهي تمسح برفق النوم عنهما. أمسكت يده بكلتا يديّ وقبّلتها بمحبة. دعانا لتناول العشاء، فقمنا مسرعتين متلهفتين إلى المائدة التي تفوح منها رائحة الطعام الشهي من إعداد زوجة خالي الماهرة. جلسنا مع العائلة في جوٍّ مليء بالحب والود. كانت تلك الأمسية إحدى أجمل الأمسيات التي أضافت إلى ذاكرتي دفئًا لا يُنسى، خاصة بكلام جدّي وحكاياته عن ماضٍ جميلٍ لم نعشه، لكنه يعيش في خيالنا من خلال كلماته. تلك القصص، التي تنقل تجاربهم وحياتهم، هي كنز عظيم يقدمه لنا الأجداد، لكن للأسف، قليلون من يقدّرون قيمة هذه الخبرات.

وبينما كان جدّي يغمرني بحكاياته وذكرياته، تمنيت لو أن الزمن يقف، ولو أن الأجداد يبقون معنا إلى الأبد. لكن وكما هي العادة،

اللحظات الجميلة لا تدوم. استأذن جدّي وخالي للنوم، إذ اعتادوا على النوم مبكرًا، وانفرط عقد السهرة الجميلة تدريجيًا مع نوم الجميع. وجدت نفسي فجأة وحيدة في هذا الهدوء. لم أكن قادرة على النوم، فقد أزالت القيلولة التي أخذتها بعد المغرب حاجتي للنوم مجددًا.

توجهتُ إلى حقيبتي وأخرجت مصحفي، فتحتُه على سورة الأنبياء، حيث اعتدت أن أقرأ جزأيْن من القرآن يوميًا. بدأت في القراءة، واستغرقت في آيات الله، لأجد نفسي مستريحة بين دفتيه. وما أن انتهيت من وردي اليومي، حتى شعرت برغبة في استكمال البحث الذي كنت أقوم به في الكتاب المقدس. فتحت الكتاب مرة أخرى، وأنا أعلم أنني سأواجه صدمات جديدة مع كل نص أقرأه.

لم أستطع كبح فضولي، فاتصلتُ بأم زكريا، تلك المرأة الرائعة التي أتابع كل منشوراتها وأتعلم منها الكثير. سألتها بشغف متزايد:

ـ "أنا ما زلتُ أواصل البحث في الكتاب المقدس، ووصلتُ الآن إلى سِفر الأمثال، وهناك نص يقول: الرب خلقني أولى طرقه قبل

أعماله منذ البدء. فهل المقصود بهذا النص آدم أم المسيح بحسب تفسير النصارى؟"

أجابتني أم زكريا بصوتها الهادئ الذي يحمل خلفه عمق المعرفة:

ـ "النصارى يقولون إنه عن المسيح. الأنبا كيرلس السكندري، بطريرك الإسكندرية الرابع والعشرون، ذكر هذا في كتاباته، وخصوصًا في كتبه 'حوار حول الثالوث' و'الكنوز في الثالوث'.

وقد أوضح في تلك النصوص أن المسيح مخلوق فعلًا، وهذا هو المعنى الظاهر من النص كما جاء في الترجمة السبعينية التي يعتبرونها دقيقة جدًا."

سألتها بدهشة:

ـ "ومن قال لهم إن هذا النص يتعلق بالمسيح؟"

أجابت أم زكريا وهي تزيدني توضيحًا:

ـ "هم من اعترفوا بذلك بأنفسهم، وكيرلس السكندري أحد أكبر المدافعين عن هذا التفسير. الترجمة السبعينية، التي يعتمدون عليها في تفسير الكتاب المقدس، تقول بوضوح إن كلمة 'خلقني' لا تحتاج إلى أي تأويل، وهذا النص هو أحد أخطر الأدلة التي تشير إلى

أن المسيح مخلوق وليس خالقًا، وقد سمعت عن فتاة أسلمت بسبب هذا النص بالتحديد."

تعجبت وقلت متسائلة:

ـ "إذًا، هل يعني هذا أن جسد المسيح قد خُلق قبل العالم ولم يتكون في رحم العذراء؟"

أجابتني بحذر:

ـ "نعم، هذا ما يفهم من النص، لكن لا تقفي عند هذا الحد. الأهم أنه مخلوق، وهذا يناقض تمامًا فكرة اللاهوت الذي يقولون إنه أزلي وغير مخلوق."

ازداد فضولي وسألتها عن الترجمات الأجنبية لتلك النصوص، فأوضحت لي:

ـ "أنا أيضًا شعرت بالحيرة بين كلمة 'خلقني' وكلمة 'اقتنى'. لكنني طرحت سؤالًا: إذا كان النص يقول إن الله اقتنى الابن منذ الأزل، فمن أين اقتناه؟ هذا يشير إلى أن المسيح كائن مخلوق، لأن 'اقتنى' تعني 'خلق' في سياق هذا النص، وهناك شواهد أخرى في العهد الجديد تؤكد هذا المعنى."

وأكملت أم زكريا، قائلة:

ـ "في رؤيا يوحنا اللاهوتي، ترجمة فانديك، ورد نص خطير يقول: واكتب إلى ملاك كنيسة اللاودكيين: هذا يقوله الآمين، الشاهد الأمين الصادق، بداية خليقة الله. هذا نص صريح في أن المسيح مخلوق، وهو نص كارثي بالنسبة للنصارى الذين يؤمنون بألوهية المسيح."

قاطعتها وأنا مستنكرة:

ـ "هل حقًا يقرأ النصارى هذا النص؟ كيف يمكن أن يتجاوزوه دون التساؤل؟"

ردّت أم زكريا بحزن:

ـ "أغلب النصارى لا يقرؤون كتبهم، بل يسمعون ما يُلقى عليهم من القساوسة. هم يعيشون في وهم الخلاص والصلب ولا يتساءلون عن التناقضات الواضحة التي تحتويها كتبهم."

ثم زادتني موضحة:

ـ "عندما كنت أبحث في هذا السِفر، تواصلت مع بعض المتخصصين في الدراسات المسيحية. أرسلوا إليّ مراجع قديمة تكشف عن النقاش الذي دار بين آريوس وأثناسيوس. كنت

مذهولة حين قرأت تفاصيل الجدال بينهما، فآريوس، الذي كان يؤمن بأن المسيح مخلوق، استند فعلًا إلى هذا النص من سِفر الأمثال كدليل قاطع على موقفه. فسأل أثناسيوس: كيف يمكن أن يكون المسيح إلهًا وهو مذكور بوضوح في النص على أنه مخلوق؟ هنا جاء رد أثناسيوس، وكان من أكثر الردود غرابة وإثارة للتساؤلات. ردّ قائلًا: الكلمة العبرية "قناني" تعني "ولدني"، ولكن هذه الولادة ليست كأي ولادة زمنية، بل هي ولادة أزلية. ظننت أن هذا الرد سيُسكت آريوس، لكن ما حدث هو العكس. آريوس أفحمه وأخبره بأن تفسيره خاطئ، لأن الترجمة السبعينية، التي يتبناها أغلب المسيحيين بوصفها تفسيرية، تقول بوضوح إن كلمة "قناني" العبرية تعني "خلقني". عندها تساءل: فهل نصدق تفسيرك الشخصي يا أثناسيوس، أم نصدق الترجمة السبعينية التي يعتمدها معظم علماء الكنيسة؟

المفاجأة لم نتوقف هنا، إذ جاء رد أثناسيوس ليصدم الجميع، حيث قال: إن كلمة "خلقني" في الترجمة السبعينية لا تشير إلى لاهوت المسيح، بل إلى جسده المخلوق الذي وُلِد من مريم العذراء. أما

كلمة "قناني" في النص العبري، فهي تشير إلى اللاهوت الأزلّي للمسيح!

استوقفني هذا التفسير كثيرًا، فهو غير منطقي على الإطلاق! كيف يمكن للنص الذي يقول بوضوح: الرب خلقني أولى طرقه أن يكون إشارة إلى الجسد المخلوق بعد ولادة المسيح من مريم؟ والأدهى من ذلك، أن النص الذي يليه مباشرة يقول: منذ الأزل مُسِحْتُ، منذ البدء، منذ أوائل الأرض. فكيف يمكن أن يكون الجسد مخلوقًا، بينما يصر النص على أنه كان منذ الأزل؟"

فبعد أن تعمقت في البحث حول الكلمة "مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ" الواردة في النص العبري، واستمعت للترجمات اليهودية والقواميس المسيحية اللغوية، أدركت أن الترجمة القائلة "منذ الأزل" ليست دقيقة. فالأصل العبري يشير إلى "من البدء توجت" أو "من البدء مسحت"، منذ أوائل الأرض. وكانت المفاجأة الكبرى عندما قرأت النص التالي، حيث يقول: "أبدئت"، والتي في اللغة العبرية تعني "خُلقت". هذا أوضح لي أن النص يتحدث بوضوح عن كائن مخلوق منذ البدء، وليس عن جسد المسيح المخلوق بعد مريم، كما كان يُزعم.

إذن، المقصود بالنص يبدو واضحًا: المسيح كان مخلوقًا منذ البدء، وهو أحد أوائل المخلوقين من الأنبياء. وهذا ليس غريبًا، فالتقليد الكتابي ينص على أن جميع الأنبياء والقديسين كانوا مخلوقين منذ البدء، كما ورد في إنجيل لوقا (الفصل الأول):

ـ "مبارك الرب إله إسرائيل، تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر، خلاص من أعدائنا ومن أيدي جميع مبغضينا".

وأيضًا في رسالة يعقوب (١: ١٨):

ـ "شاء فَوَلَدَنَا بِكَلِمَةِ الْحَقِّ، لِكَيْ نَكُونَ بَاكُورَةً مِنْ خَلاَئِقِهِ".

وفي رسالة أفسس (١: ٤):

ـ "كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ".

بناءً على هذا، أدركت أن المسيح في هذا النص ليس إلا قديسًا أو نبيًا، عبدًا من عباد الله الصالحين، تمامًا مثلما ورد في قصة النبي أرميا، حيث قيل عنه:

ـ "فَكَانَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ إِلَيَّ قَائِلًا: قَبْلَمَا صَوَّرْتُكَ فِي الْبَطْنِ عَرَفْتُكَ، وَقَبْلَمَا خَرَجْتَ مِنَ الرَّحِمِ قَدَّسْتُكَ. جَعَلْتُكَ نَبِيًّا لِلشُّعُوبِ". (أرميا ١: ٤-٥)

لاحظت هنا أن النبي أرميا، مثل سائر الأنبياء، مخلوق ومقدس منذ البدء، مما يعزز فكرة أن المسيح في النصوص الكتابية ليس إلهًا، بل نبيًا ممسوحًا ومخلوقًا منذ البداية.

بعد أن انتهينا من هذا النقاش، استأذنت أم زكريا لتكمل انشغالاتها في الرد على بعض الأسئلة والاتصالات، وهي كعادتها لم تنسَ أن تدعو لي بالخير والزوج الصالح، كما تفعل في كل محادثة بيننا. ودعتها واستودعتها الله، الذي لا تضيع ودائعه، واستغرقت في تأملاتي حول هذا الاكتشاف الذي هزّني بعمقه.

«٣»

في الجريدة

من خلال عملي في الجريدة، انفتحت أمامي أبواب عالم جديد، عالم يتجاوز حياة الكلية. كان هذا العالم أكبر وأوسع، حيث أدركت أن الحياة تتجلى في العمل، والناس، والآمال، والأحلام، وإثبات الذات، والاعتماد على النفس. تعرفت إلى زملاء جدد لم يكن لهم علاقة بزملاء الكلية، إذ كان زملاء الكلية من مستوى واحد، جميعنا في نفس السن والعقلية. كنت أستطيع مصادقة هذه وترك تلك، فأنا حرة ما دمت غير مسؤولة. بينما في الحياة العملية، لا نختار زملاءنا؛ قد يكونون أكبر مني سنًا أو أصغر، وقد يتشابهون معي أو يختلفون.

لكن التعايش والبعد الإنساني هما الأساس، والأخلاق هي التي تضبط معايير العلاقات. تعرفت إلى العديد من الزميلات، منهن المحجبة وغير المحجبة، الملتزمة وغير الملتزمة، المتزوجة والمخطوبة

والمطلقة والأرملة. كان هذا عالمًا جديدًا، أهم ما فيه أنني تعرفت إلى زميلات مسيحيات، أشهرهن المسيحية الشقراء المدعوة «هيلين»، حيث أعجبت بداية باسمها الجميل والغريب على أذني. تبادلنا أرقام الهواتف، وعندما علمت أني باحثة في الأديان، وبالأخص التوراة والإنجيل، تعجبت جدًا وسألتني بدهشة:

ـ كيف ذلك؟

فأجبتها بابتسامة:

ـ إنني أحب أن أعرف كل ما في الكتب السماوية.

فقالت:

ـ أمر جيد، إذا تعذر عليكِ فهم شيء، يمكنك أن تسأليني.

فقلت لها بامتنان:

ـ بالتأكيد، يا صاحبة الوجه البشوش.

مرت أيام طويلة لم أقرأ فيها شيئًا عن الكتاب المقدس نظرًا لانشغالي في عملي بالجريدة، إلى أن فوجئت ذات يوم على فيسبوك بطلب صداقة من حساب يحمل اسم «جورج نعيم». لم أتمالك نفسي

من شدة المفاجأة، شعرت أن الدنيا تدور من حولي. استندت برأسي إلى مسند مقعدي، وأغمضت عينيّ، محاولةً تنظيم أنفاسي المضطربة. بدأت أستنشق الهواء بهدوء ثم أزفره برفق، تشوش عقلي، بل ربما ظننت أنني أحلم، لكنني سرعان ما تماسكت وتمالكت فرحتي الشديدة. أرسلت إليه رسالة ترحيب، وسألته بعدها عن والدته مريم وعن والده وأخبارهما.

طمأنني أولًا على والده، ثم قال بحزن:

ـ سامحيني على مدة غيابي عنكِ، لقد كنت مشغولًا في دراستي، وبعدها مرضت أمي وتوفيت.

فقلت بحزن:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون، إنه لخبر محزن جدًا.

قال موضحًا:

ـ لذلك لم أكن أتواصل عبر حسابي على فيسبوك خلال هذه الفترة، فقد كنت حزينًا جدًا لفراقها، لكنني قلت مثل ما يقول المسلمون: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

فقلت له في رسالة صوتية بنبرة يشوبها حزن عميق:

ـ رحمكِ الله يا مريم رحمة واسعة، اللهم اغفر لها وارحمها.
لم أُرد إطالة الحديث أكثر بعد ما عرفته للتو من خبر أحزنني، فاستأذنت جورج وأنهينا المحادثة على وعد بالتواصل مرة أخرى.
بعدها عبّرت عن حزني بمنشور تعزية عن مريم عبر حسابي، لكنني فوجئت بتعليق من أم زكريا في أقل من دقيقة، حيث كتبت:
ـ لا يجوز الترحم على أموات غير المسلمين.
راسلتها على الفور مستفهمة، ولست معترضة، فما خُلقنا إلا لنتعلم.
كتبت لها متسائلة:
لماذا يا أستاذة؟ إنه ليس اعتراضًا مني إنما أريد أن أتعلم؟ أجابتني:
ــ أعلم يا ملك أنكِ لست معترضة ولكن تريدين الدليل الشرعي على صحة ما أقول، حسنًا لكِ هذا.
ثم أرسلت إليّ تلك الآيات:
«ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم.»
وقال اللهِ تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا). النساء.

فقلت باستغراب:

ــ لكن الله يقول أيضًا ورحمتي وسعت كل شيء.

قاطعتني أم زكريا قائلة:

ــ أكملي الآية: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكٰوةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ».

وُيقال: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ »

استأذنتها أن أضع محادثتنا هذه على الفيس كتعليق على المنشور وبمجرد ما أن كتبته أضاف جورج تعليقا كتب فيه:

ــ تحياتي يا أم زكريا سعيد بتواصلي معكِ، اسمحوا لي أتواصل معكم.

كتبت أم زكريا مُرحبة:

ــ أهلا يا جورج، البقاء لله في موت السيدة الوالدة، تفضل قل ما لديك!

فكتب يسألها:

ــ ردًا على ما كتبتِه أينطبق ذلك على من مات وله الكثير من الحسنات بل وربما خدم البشرية أكثر من المسلمين، أنا أتحدث في العموم وليس بشكل شخصي!

أجابته أم زكريا:

ــ نعم فالله عز وجل يقول: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ».

ويقول: «وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا».

ويقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ».

انضمت للتعليقات صديقتي «لوجي» التي كتبت تقول:

ــ ولكن ماذا لو كان هذا هو رأيه واعتقاده، ويراه صحيحًا!

ردت عليها أم زكريا موضحة:

ــ ولكن يا «لوجي» في محكم القرآن: "إنه من يُشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار (، وفي الحديث:) لن يدخل الجنة إلا نفس مسلمة".

وفي كتب الفقه يباح زيارة قبر كافر للاتعاظ، ويقول له إذا زاره: أبشر بالنار! لحديث: (حيثما مررت بقبر مشرك فبشره بالنار). ثم تابعت باستفاضة:

ــ هذه المسألة ليس فيها خلافٌ بين أهل العلم مطلقًا أنه لا يجوز قطعًا طلب الرحمة لمن مات وظاهره أنه مات على غير الإسلام.

اعترضت لوجي مؤكدة:

ــ لكنني سمعت شيوخًا كُثر يبيحون ذلك!

ردت أم زكريا تقول:

ــ نعم لأن في زمننا هذا كَثر من يلبس لباسَ أهل العلم يُفتي ويجيز أن نترحم على الكافر، وهؤلاء إما أنهم يعملون لأجل الدرهم والدينار، أو يقولون هذه الفتاوى نفاقًا، أو هؤلاء من جهلة

أهل العلم وإن لبسوا لباسه، وحسبوا أنفسهم من أهله، ولا أظن أبدًا أنهم يجهلون.

فنحن في زمن كثرت فيه محاولات تغيير صحيح الدين أصوله وفروعه على أيدي سفهاء يدعون أنهم من أهل العلَم لْيصدقهَم الناس. كما قال تعالى في أمثالهم من علماءَ اليهوَّد: (أفتَطمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (٧٥) البقرة.

ثم زادت قائلة:

ــ فأركان الإيمان يا لوجي ستة، عندما سُئل سيدَنا محمد عنهم منَ جبَريل عُليه السلام قال صلى الله عليه وسلم: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

وبناءً على ذلك؛ فكل من لم يؤمن بهذه الأركان الستة ليس بمؤمن، أي: أن مَن آمن بالله ولم يؤمن بالرسل، فليس بمؤمن، ومن آمن بكل كتب الله إلا كتابًا واحدًا فليس بمؤمن، ومن آمن بكل الرسل ولم يؤمن برسول منهم فليس بمؤمن.

لقد قالَ الله تعالى في كتابه العزيز: (كَذَّبَتْ قَوْمَ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ).

وقال تعالى عنهم أيضًا: (وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا) وَقَوْلِهِمْ: إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ.

ثم ازدادوا كفرًا بكفرهم بمحمدٍ ﷺ، كذلك النصارى كفروا بمحمدٍ ﷺ.

للحظات، لم تضف فيها أم زكريا تعليقًا جديدًا، فكتب جورج بحماس اعترى حواسه كأنما وصل إلى نقطة هي مبتغاه منذ البداية:

ـ تابعي يا أم زكريا من فضلك، هذا الحوار شيق، وأنا أريد معرفة المزيد.

أكملت دون أن تُعقب على كلام جورج، وقالت:

ـ هناك نقطة أخرى أريد أن أوضحها لكم، وهي أن من لم يؤمن بالإسلام ولا بالقرآن فهو كافر، واليهود والنصارى كافرون بالقرآن وبالإسلام، فكيف يكونون مؤمنين؟

وواصلتُ الحديث، مُؤكدةً:

ـ يقول الله تعالى أيضًا: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ).

واعلمي أيضًا يا لوجي أن اليهود والنصارى، وبقية الكفار لا يقولون لا إله إلا الله، ولا يشهدون للنبي بالرسالة، بل يكذبونه ويصفونه بالأوصاف القبيحة، كما كان كفار قريش يفعلون في الجاهلية. ثم إنهم لا يصلون ولا يصومون ولا يحجون، ولا يعترفون بهذه الشرائع أصلًا، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فكيف يكونون مؤمنين؟!

- هذا معناه أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة!

- نعم، الجنة للمسلمين فقط.

ثم تابعت موضحة:

روى البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَذلكَ أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنْتُمْ فِي أَهْلِ الشِّرْكِ إِلَّا كالشَّعْرَةِ البَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ، أو كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَحْمَرِ».

أما مَن كان مشركًا ومات على شركه، ولم يسلم في حياته فهو كافر ومن أصحاب النار، والكافر لا يُخفف عنه العذاب. وقد قال تعالى في ذلك آيات أخرى كثيرة مثل قوله:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا)

وَهناكَ أيضًا قَوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ}. وقوله تعالى أيضًا: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}.

إذن فالدعاء لهم بالرحمة أو المغفرة لن ينفعهم مطلقًا. ولما كان النصارى مشركين دعاهم الله إلى التوبة من هذا الشرك وقال لهم تعالى في سورة النساء:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا

اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكفى بِاللَّهِ وَكِيلًا).

فإن كل من ادعى أن لله ولدًا فهو مشرك ومفترٍ على الله الكذب، وكل من اليهود والنصارى يقولون إن لله ولدًا.

فنسبةُ الولد لله كفرٌ وشركٌ، وطبعًا كما نرى ونسمع أن النصارى يقولون: الله ثلاثة؛ الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، والثلاثة خالقون ومعبودون، ولهم كامل صفات الألوهية.

يقولون:

الأب: هو الله الوالد، وهو الذي وُلِدَ ولم يُولَد.

وعيسى عندهم: هو الله الابن المولود، وهو لا يلد.

والروح القدس عندهم: هو الله الذي لم يلد ولم يُولَد، وهو منبثق من الله الآب.

لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم عن الكفار أنهم قالوا: (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

فرد الله عليهم وقال: (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ).

إذن فالمقياس عند الله في الآخرة على الإيمان والعمل الصالح الموافق للشرع، وليس على الإنجازات الإنسانية في الدنيا. وبالتأكيد فإن دخول الجنة مقصور على المؤمنين فقط، وأن الجنة لا يدخلها إلا نفسٌ مسلمة.

فالكافر يُجازَى في الدنيا بحسناته التي عملها لوجه الله، معنى ذلك إذا عمل الكافر حسنة في الدنيا لله، فالله يجازيه بها في الدنيا ولا جزاء له في الآخرة.

فعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطَى بها في الدنيا ويُجزَى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يُجزَى بها». رواه مسلم.

هنا سألت لوجي:

ولكن أيجوز أن أستغفر له ويفعل الله ما يريد؟

أجابت أم زكريا سؤالها:

أم النبي صلى الله عليه وسلم، عندما ماتت على الشرك، لم يأذن الله لنبيه بالاستغفار لها.

فرَوَى مسلمٌ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي».

وسألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجل كان كريمًا ومات في الشرك، واسمه ابن جدعان، قالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافع له؟

قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يومًا: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». رواه مسلم.

وسأله أيضًا عدي بن حاتم الطائي عن أبيه حاتم، وهو من أشهر العرب الكرماء، فقال:

قلت: يا رسول الله، إن أبي كان يصل الرحم، وكان يفعل ويفعل، وذكر مكارم الأخلاق، فهل له من ذلك من أجر؟

فقال: «إن أباك أراد أمرًا فأدركه». رواه أحمد وهو حديث حسن.
(والأمر الذي ناله هو حسن الثناء عليه، وأن يُذكر بالكرم والجود).
وقد نالهما.

وهذا أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم، عندما مات على الشرك، لم يترحم عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه كان يمنع النبي من المشركين ويحميه منهم.

فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال:

لما حضرت أبا طالب الوفاة، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله عز وجل:

(ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم). وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمُهتدين).

وهناك أيضًا موقف سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ تبرأ من أبيه عندما رآه مُصرًّا على الشرك، فقد قال تعالى: (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم).

أتعلّمون أن اليهود كانوا يعطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم أملًا في أن يقول لهم: يرحمكم الله.

كما جاء في الحديث الشريف عن أبي موسى، قال:

كان اليهود يتعاطسون عند النبي صلى الله عليه وسلم يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول: «يهديكم الله ويصلح بالكم» قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

كل ما قلته وأوضحته لكم لا يتنافى مع أن تكون معاملتنا مع الكافر المسالم جيدة، فنحن مأمورون بمعاملة الناس جميعًا معاملة حسنة إلا من ظلم، فجزاء سيئة سيئة مثلها.

قال الله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقولوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) .

وقال تُعالى: (لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ).

ونحن كذلك مأمورون بالعدل ولو على الكافر:

قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألا تعْدِلوا اعْدِلوا هُوَ أقرَبُ لِلتَّقْوَى) (المائدة: ٨).

وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفسِكمْ أو الوَالِدَيْنِ وَالأقرَبِينَ إِنْ يكنْ غَنِيًّا أو فقِيرًا فاللهُ أَوْلى بِهِمَا فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى). (النساء: ١٣٥)

كما حدث مع أسرى بدر من المشركين والاعتراف بفضلهم إن كان لهم فضل،

عَنْ مُحَمَّدِ بنِ جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ رَسِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلمَ قَالَ فِي أسرى بَدْرٍ: «لوْ كانَ المُطعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثمَّ كلمَنِي فِي هؤُلاءِ النَّتْنَى لتركْتُهُمْ لهُ».

وأخيرًا وجب علي أن أُذكركم بأن علينا ألا نجزم لأحد بجنة أو نار إلا من ورد فيه نص من الله ورسوله

كالعشرة المبشرين بالجنة وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان، وغيرهم ممن شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة.

أما غيرهم من المؤمنين والمسلمين، فنرجو لهم الجنة بلا جزم.

كما حدث عندما مات عثمَان بن أبي مظَعون، قالتَ إحدَى اَلْصحابياتَّ:

رحْمَة اللهِ عَلَيكَ أبَا السَّائِبِ، فشَهَادَتِي عَلَيْكَ: لقَدْ أكرَمَك اللهُ، فَقالَ النبِيّ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ:

«وَمَا يُدْرِيكِ أنّ اللهَ قد أكرَمَهَ؟»

فقُلتُ: بِأبِي أَنْتَ يَا رَسُّول اللَّهِ، فَمَنْ يُكرِمُهُ اَللّهُ؟

فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ اليَقِينُ، وَاللهِ إِنِي لأَرْجُو لَهُ الخَيْرَ، وَاللهِ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَا يُفْعَلُ بِي» قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أبدًا.

والحديث رواه البخاري.

بعدها أنهت أم زكريا كلامها بتعليق أخير قالت فيه:

- لا تغتروا إخواني الكرام بما يقوله أهل الباطل من الذين يلبسون لباسَ أهل العلم، وهم في الحقيقة يكذبون ويفترون على الله الكذب. هل كان يتخيّل المسلمون في أسوأ كوابيسهم أن يختلف أحد في هذه المحكمات الشرعية، هل كانوا يتصورون أن مسوخًا سيجادلونك في عدم جواز الترحم على الكفار والملحدين؟

أخسى أنَّ من يفعل ذلك لن يبقى له من حقيقة الإسلام شيء.

حينها قال جورج موضحًا لرأيه حسبما فهم مما قالته أم زكريا:

- ولكن يا أم زكريا الله محبة وهو غفور رحيم.

ـ عارضته أم زكريا: أنا أعترض على كلمة الله محبة، إذ أنها ليست من أسماء الله ولا من صفاته المطلقة، الودود هو اسم الله وصفته، والله معبود وليس محبة، بل المحبة من صفات أفعال الله المقيدة،

كحبه للمؤمنين وحبه للمتقين، والأصل أيضًا أن الله كما يحب يبغض فيبغض العصاة والظالمين والفاسقين.

ـ اعترض جورج قائلًا: هذا الكلام غير سليم، فالكتاب يقول: 'أحبوا أعداءكم، باركوا لأعينكم.'

ـ عقَّبت أم زكريا بعدما استفزها ما كتبه جورج: ما رأيك لو أتيتك من كتابك بعكس ما تقول؟ وإليك أدلتي على هذا، الدليل الأول: 'إِنْ كَانَ أحد يَأْتِيكُمْ، وَلاَ يَجِيءُ بِهذَا التَّعْلِيمِ، فَلاَ تَقْبَلُوهُ فِي الْبَيْتِ، وَلاَ تَقُولوا لَهُ سَلامٌ.' (٢ يو ١: ١٠).

ـ وتابعت: وبما أننا لا نؤمن بتعاليمكم الحالية فنحن في نظركم كفار، والكافر ليس له رجاء أي مغفرة، ولن ندخل الملكوت.

ـ والدليل الثاني: 'فما رجاء الكافر إذا مات، إذا استعاد الله روحه منه؟' (أيوب ٢٧: ٨).

ـ الدليل الثالث: 'الَّذِينَ سَيُعَاقَبُونَ بِهَلاَكٍ أَبَدِيٍّ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ وَمِنْ مَجْدِ قُوَّتِهِ.' (تسالونيكي الثانية ٩: ١).

ـ الدليل الرابع: 'فَهُوَ أَيْضًا سَيَشْرَبُ مِنْ خَمْرِ غَضَبِ اللهِ، الْمَصْبُوبِ صِرْفًا فِي كَأْسِ غَضَبِهِ، وَيُعَذَّبُ بِنَارٍ وَكِبَرِيتٍ أَمَامَ الْمَلاَئِكَةِ

الْقَدِّيسِينَ وَأَمَامَ الْخَرُوفِ. وَيَصْعَدُ دُخَانُ عَذَابِهِمْ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ. وَلا تَكُونُ رَاحَةٌ نَهَارًا وَلَيْلًا لِلذِينَ يَسْجُدُونَ لِلْوَحْشِ وَلِصُورَتِهِ وَلِكُلِّ مَنْ يَقْبَلُ سَمَةَ اسْمِهِ.' (رؤيا ١٤: ١٠-١١).

ـ ومع كتابة آخر دليل ساقته لنا أم زكريا، كنا قد انتهينا من النقاش، حيث لم يستطع جورج أن يدلي بدلوه أو يعقب ببنت شفة، مما دفعني لمراسلته على الخاص بعدما قمت بتعديل المنشور الذي طلبت فيه الرحمة لمريم إلى كلمات موجزة تمثلت في عبارة واحدة كانت: البقاء لله وحده.

ـ في بداية حديثي معه لم أشأ أن أسأله عن رده على ما قرأه من أدلة، كذلك غلبني فضولي لمعرفة ما فعله بفترة انقطاع تواصلنا السابقة، فكتبت له: جورج، أنت لم تحكِ لي قصتك مع البحث في القرآن الكريم أم أنك توقفت عن القراءة به أيضًا؟!

ـ جاءني رده سريعًا حاسمًا حين كتب: بالفعل توقفت، لأنني سأكمل معكِ قراءة الكتاب المقدس.

ـ لماذا لم تسلم بعد؟ هكذا كان سؤالي له مباشرة، مباغتًا كأنني لم أحسب له حسابًا، كذلك لا أعلم لم تخيلته أمامي يقرأ سؤالي له

ويبتسم.. تأخر رده قليلًا ربما للحظات خيم على عقلي فيها شبح الندم على تسرعي، لكنه طرد وساوسي بإجابته حين كتب: يميل قلبي بقوة... ولكن.. ما زلت أجد ذلك القرار صعبًا، إنه أصعب مما تخيلت، ولا أدري لماذا بعد أن تغيرت الكثير من قناعاتي الدينية.

ـ ولأن بعض الأمور لا تحتمل المواربة خاصة في أمور الدين الحق وجدت نفسي أكتب له بشكل مباشر وربما لاذع: ما على الرسول ﷺ إلا البلاغ المبين، ولعل موت أمك مريم على الكفر يكون لك دافعًا وحافزًا للتعجيل بدخولك في الإسلام، ومع ذلك أريد أن أسألك سؤالًا واحدًا هل أنت متأكد مائة بالمائة أن مريم في الملكوت أم أنك تشك في هذا؟

ـ وقبل أن أتيح له الفرصة في التفكير في إجابة سؤالي أعقبته بسؤال آخر أكثر جرأة في سبيل الحق: جورج، إن لم يكن لديك علم مؤكد بمصير أمك فكيف تنام قرير العين والموت يأتي في لحظة؟ ألا تخاف مصيرك أنت في الآخرة وأنت لم تسلم بعد؟

ـ وقبل أن أفقد شجاعتي وأملي في حثه على اتخاذ القرار الصحيح ختمت كلامي محذرة: لا تتأخر كثيرًا يا جورج فالأمر ...

ـ لم أتم عبارتي إذ نفد شحن هاتفي فجأة، فرأيت أن أترك لجورج بعض الوقت ليرتب أفكاره المبعثرة. وضعتُ هاتفي على الشاحن ثم أزحت ستار النافذة قليلًا وتأملت السماء الملبدة بالغيوم. ذلك العالم الرمادي المهيب ليداهمني إحساس اختفى كثيرًا، لقد كان إحساسًا جارفًا بسعادة عجيبة لا أعرف لمَ اعتراني شعور خفي بالخجل، كل هذا لأن جورج ظهر بحياتي من جديد؟

ـ ولكن ما لبثت سعادتي أن تحولت إلى تخبط وحيرة، فهو لم يعد يشغل بالي كحبيب كما في السابق!

رباه، اختر لي ولا تخيرني. بتلك الدعوة، نزعت مشاعري من قلبي، كما ينزع الجراح ورمًا من جسد مريض، حتى لا يجرفني تيارها إلى حيث لا أحب، وتركت كل ما يؤلمني لله . فهو القادر وحده على تهدئة روحي وإراحة قلبي.

اتخذت قرارًا صعبًا: سأركز كل جهدي الآن على شيء واحد، أن يدخل جورج في الإسلام. لم أكن أدرك أن والدتي كانت تراقبني بصمت، ولم أشعر بها إلا حينما اقتربت فجأة، تحتضنني من الخلف بحنان أمومي، وتهمس بصوت دافئ: "ما الذي يشغل بال جميلتي؟"

أجبتها بصدق كما اعتدت: "جورج عاد يا أمي، راسلني اليوم وأخبرني أن مريم قد ماتت"!

شهقت أمي، وهي تردد بحزن: "إنا لله وإنا إليه راجعون... هل ماتت في أمريكا أم هنا في مصر؟"

أجبتها وأنا أشعر بثقل الكلمات: "لا أعلم يا أمي، فقد انطفأ شحن هاتفي ونحن نتحدث".

نظرت إليّ بعينين مليئتين بالحنان، وبصوت امتزج بالقلق سألتني: "لو طلبت منكِ ألا تتحدثي معه مرة أخرى، هل ستستجيبين لي؟"

التفتُ إليها بحزم وقلت: "نعم يا أمي، فطاعتك واجبة، لكن"...

سكتُّ لحظة، وكأن الصمت أثقل عليّ، فلاحظت أمي قلقها يزداد، فسألتني بسرعة وبتوتر: "لكن ماذا يا ملك؟"

أجبتها بحماس، وكأنني أحسم أمرًا في داخلي: "أمي، أرجو أن تثقي بي. أقسم بالله لن أخذلك. لم يعد جورج كما كان بالنسبة لي، وأعدكِ لو تقدم لي شخص مناسب، سأقبله، والله أحدثكِ بصدق".

ابتسمت أمي وضمتني إليها مرة أخرى، وهي تهمس بثقة: "وأنا أصدقكِ يا ابنتي، وأثق بكِ".

ثم طلبت مني برفق: "هيا، اذهبي لتتناولي غداءكِ، والدكِ عاد من عمله مبكرًا اليوم وتناولنا الطعام".

سألتها وأنا في طريقي للمطبخ: "هل جاء مروان؟"

أجابتني بالنفي، فقررت أن أنتظره حتى نأكل معًا.

بعد مغادرة أمي، حاولت شغل وقتي حتى يعود مروان. عدت إلى الكتاب المقدس لأكمل من حيث توقفت، وفتحت سفر الأمثال وقرأت:

»لا تَمْنَعِ التَّأْدِيبَ عَنِ الْوَلَدِ، لأَنَّكَ إِنْ ضَرَبْتَهُ بِعَصًا لاَ يَمُوتُ«.

»تَضْرِبُهُ أَنْتَ بِعَصًا فَتُنْقِذُ نَفْسَهُ مِنَ الْهَاوِيَةِ«.

استغربت، فمن الواضح أن هذا النص يبرر ضرب الأطفال! كيف يعترض النصارى إذن على ضرب الزوجة أو الأطفال للتأديب وهم أنفسهم لديهم نصوص تشرع ذلك؟ كان ذلك مصدر دهشتي.
قررت الاتصال بأم زكريا لتوضيح الأمر أكثر، وبعد شحن هاتفي اتصلت بها. أكدت لي بهدوء: "لقد شرحت هذه الشبهة في الجزء الأول من رواية صديقتي التي أحببت دينها".
فقلت لها: "إذن سأعود لقراءته".
أنهيت المكالمة، وعدت للقراءة، ووجدت في سفر الأمثال تناقضًا آخر بين نصين متتاليين: «لا تجاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا تعدله أنت».
»جاوب الجاهل حسب حماقته، لئلا يكون حكيمًا في عينَي نفسه«.
تساءلت في حيرة: "أنجاوب الجاهل أم لا نجاوبه؟"
ثم وصلت إلى نص آخر غريب في نهاية الأمثال: «لِلْعَلُوقَةِ بِنْتَانِ: «هَاتِ، هَاتِ!» ثَلاَثَةٌ لاَ تَشْبَعُ، أَرْبَعَةٌ لاَ تَقُولُ: كَفى».
تساءلت بدهشة: "هات هات؟! وما معنى العلوقة؟

«٤»

الخمر

بحثت في الترجمات لعلي أجد معنى تلك الكلمة التي وردت في النص، فوجدت أنهم يقولون إن معناها "العلقة" ترجمة الحياة. أمّ٣٠—١٥: للعَلَقَةِ بِنْتَانِ هَاتِفَتَانِ: هَاتِ، هَاتِ. ثَلاَثَةٌ أَشْيَاءَ لاَ تَشْبَعُ قَط، وَالرَّابِعَةُ لا تَقُولُ كَفَى. الترجمة المشتركة: أم٣٠--١٥: للعَلَقَةِ بِنتان تَقولانِ: "هاتِ، هاتِ". هناك ثلاثٌ لا تَشبَعُ، والرَّابعةُ لا تقولُ "كفَى".

هنا توقفت عن القراءة لبعض الوقت، وحدثت نفسي قائلة: "فلنفترض أنها تعني العلقة بمعناها المعروف لدينا بصفتنا مسلمين، إذن فما معنى أن لها بنتين، والبنتان تتحدثان وتقولان 'هات هات'!!"

انتابني شيء من الحيرة، ولكنني تابعت بابتسامة عرفت طريقها إلى شفتي:

"لو كان العم نعيم معي الآن لشرحها لي، بل ولضحكنا معًا. رحمك الله يا عم نعيم. لا بأس، سألتجئ إلى أم زكريا."

عدت للقراءة إلى أن انتهيت أخيرًا من الأمثال كلها، وختمت بهذين النصين اللذين يحرضان على شرب الخمر.

وفي سفر الأمثال ٣١: ٦-٧، "أَعْطُوا مُسْكِرًا لِلْهَالِكِ وَخَمْرًا لِمُرِّيِ ٱلنَّفْسِ. يَشْرَبُ وَيَنْسَى فَقْرَهُ، وَلاَ يَذْكُرُ تَعَبَهُ بَعْدُ."

لا تجد ملحدًا إلا ويشرب الخمر. لا تجد فاسقًا إلا ويشرب الخمر. لا تجد ديوثًا إلا ويشرب الخمر. لا تجد خائنًا لزوجته إلا ويشرب الخمر. لا تجد ماكرًا كذابًا إلا ويشرب الخمر.

أعلم أنني أشغل وقت أم زكريا كثيرًا، ولكن هي من تشرح لي ما لا أفهمه. وكعادتي، حدثتها وبعد أن اعتذرت إليها عن كثرة اتصالاتي، قلت في دهشة:

منذ خلق الله البشر وهم يتعاطون هذه النجاسة التي ما جاء نظام رباني أو تشريع إلهي إلا وحرمها على أتباعه، من آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والرسل محمد، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى السلام. ولم يكن الذين يعاقرون الخمر إلا أولئك الذين يتمردون على

هذه التشريعات الربانية ويكفرون بها، وذلك حتى حُرفت التوراة والإنجيل. فأصبحت هذه المشروبات النجسة شرطًا من شروط الإيمان بالنصرانية واليهودية. والمتصفح للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد سيرى أنهما مجرد كتابَي إرشاد للطريقة المثلى لشرب الخمر وأكل الخنزير وزنا المحارم، بالإضافة إلى أساطير لا يصدقها عقل ولا يقبلها منطق.

زفرت في ضيق، ثم استدركت قائلة:

النصان اللذان ذكرتهما لكِ في العهد القديم، ولو عرضناهما عليهم سيقولون: "لا يعنيانا بشيء، فيسوع جاء بعهد النعمة".

قالت أم زكريا موضحة:

هذا هو الخمر في عهد النعمة، ومن العجب العجاب أنهم يسمونها معجزة، ألا وهي تحول الماء إلى خمر على يد يسوع:

(قال لهم يسوع: «املأوا الأجران ماءً». فملأوها إلى فوق. ثم قال لهم: «استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ». فقدَّموا. فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرًا، ولم يكن يعلم من أين هي، لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا، دعا رئيس المتكأ العريس.

وقال له: «كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولًا، ومتى سكروا فحينئذ الدون. أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن!». هذه بداية الآيات فعلها يسوع في قانا الجليل، وأظهر مجده، فآمن به تلاميذه). (يوحنا ٢: ٧-١١).

ثم تابعت تقول:

منذ وقوع تلك "المعجزة" كما يطلقون عليها، والعياذ بالله، والخمر تتدفق كالمياه في بطون النصارى، ولا يُعد نصرانيًا أصيلًا إلا من شرب الخمر كما تشرب الصحراء قطرات مطر الشتاء.

لكن الإسلام هو الدين الوحيد على وجه الأرض الذي حرم الخمر بالكامل. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما أسكر كثيره فقليله حرام".

فلا يوجد عذر في دين الإسلام لمن يرتشف ولو رشفة أو يتناول ولو جرعة من أي شراب مسكر، إن القرآن الكريم كتاب الحق قد حرم بأشد العبارات ليس فقط شرب الخمر لما تجلبه من شرور، بل حرم كذلك الميسر (لعب القمار والمراهنة) والأنصاب والأزلام.

أي: أنه حرم الخمر وعبادة الأوثان والأصنام والعرافة وقراءة الطالع في آية واحدة.

فسألتها لأستزيد:

وما موقف المسلمين من آيات الخمر؟ وما كان رد فعلهم بعد ما أوحى الله بها لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وأقرها عليهم؟

أجابتني أم زكريا:

عندما نزلت الآيات، أفرغ المسلمون أوعية الخمر في شوارع المدينة، ولم يعودوا إلى شربها مرة أخرى. وعلى فكرة، جعل هذا التوجيه الصريح البسيط من الأمة الإسلامية أكبر تجمع من الممتنعين امتناعًا تامًا عن شرب الخمر في العالم.

ومن أقوال الدكتور الفرنسي شارل ريشيه، الحاصل على جائزة نوبل للفسيولوجيا، في ذكر مضار الخمر:

"إن الخمر تشل الحواس وتجعل المرء يترنح ويتقيأ، وتطفئ البصيص الضعيف من القدرة على الجدل والإقناع بالحجة والمنطق، التي نتقد ثم تخبو في تردد داخل عقولنا. وسرعان ما نتغلب الخمر على أشد الرجال قوة وتحوله إلى شخص ثائر هائج عنيف، تتحكم فيه طبيعته

البهيمية، محمر الوجه، محتقنة عيناه بالدم، يجأر ويقسم ويتوعد من حوله ويسب أعداء خياليين. ولا يوجد مثل هذا السلوك المخزي بين أي نوع من أنواع الحيوانات، لا بين الخنازير ولا ابن آوى ولا الحمير. وأبشع ما في الوجود هو السكير، فهو كائن منفر، تجعل رؤيته المرء يخجل من انتمائه للنوع نفسه من الأحياء."

ونحن بصفتنا مسلمين يا ملك، لا يجوز لنا أن نتغاضى عن إدانة شرب الخمر ولو على سبيل المجاملة أو الصداقة. فالقرآن الكريم يقول: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ".

وقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

"كل شراب أسكر فهو حرام، ما كثيره يسكر فقليله حرام".

"أيما امرئ شرب مسكرًا فلن تقبل منه أربعين صلاة، فإن تاب إلى الله بنعمته ورحمته غفر الله ذنبه".

"لعن في الخمر عشر: عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، ومقدمها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، وشاربها، ومهديها، وآكل ثمنها. كلهم ملعونون".

قلت مؤكدة:

أصلًا يا أم زكريا لا يوجد في مجتمعنا الإسلامي من يبيع الخمر، وبالتالي لا يوجد مَن يشتريها!

ضحكت أم زكريا مما قلته وأردفت نافية باستنكار:

من قال لكِ ذلك؟! ألا تعلمين أنه يوجد مصانع خمور مصرية يا ملك؟

قلت متعجبة:

لا، لم أكن أعلم.

ثم تابعتُ بارتياح:

الذي يهمني من كل ذلك أنني أخيرًا أنهيت سفر الأمثال. لكِ أن تتخيلي أنني حاولت مرارًا وتكرارًا من قبل أن أبدأ فيه، ولكن لم أستطع، وقررت أن أكمل بحثي.

قالت داعمة:

وأنا معكِ في كل شيء تحتاجين إليه يا ملك، وأتمنى لكِ كل التوفيق.

شكرُتها على صبرها معي وإجاباتها المستفيضة والسلسة لكل أسئلتي، والحق يقال إن هذا ما عهدته منها.

«٥»

المصنع

ذات يوم، طلب مني رئيس التحرير أن أذهب إلى أحد المصانع التي أثيرت حوله بعض الشبهات بسبب إنتاجه مواد يقال إنها تسبب السرطان، لأكتب عنه تقريرًا. خشيت الذهاب في بادئ الأمر خوفًا من أن أتعرض للأذى، خاصة أنها أول زيارة ميدانية لي. أصابتني لحظة ضعف امتزجت بخوفي من تلك المواجهة، وظللت أستغفر الله وأدعو الله أن ييسر لي أمري، فاستجاب الله لي ووفقني لأن أستعين بأخي مروان. تذكرت قول الله تعالى مخاطبًا سيدنا موسى: "سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ".

هاتفت مروان سريعًا وشرحت له مخاوفي، وأنها أول مرة أذهب في جولة ميدانية، فرد قائلًا بمرح:

لا بأس، سآتي معكِ. أين الstrong independent woman؟

انتظرتُ مروان لساعة كاملة، وبعد أن وصل ذهبنا معًا إلى عنوان المصنع. لكننا فوجئنا برفض رجال الأمن دخولنا من الباب. ظللنا في حيرة شديدة كيف أواجه رئيس التحرير، وماذا سأقول له؟ حينها قال مروان:

لدي فكرة!

سألته في لهفة:

قل بسرعة، ما فكرتك؟

لكنه سألني...

"مَن أكثر الناس تضررًا من هذا المصنع؟" سألني بجدية.

أجبته بعملية:

"بالتأكيد الجيران!"

هز رأسه إيجابًا ثم قال:

"إذن، لنجرِ حوارًا مع الجيران."

أومأت برأسي، مستحسنة فكرته، وهو يمسك يدي وبدأنا بالتحرك. ذهبنا إلى المحال المجاورة ووثّقنا الحديث مع أصحابها بالصوت والصورة، وكذلك حديثنا مع السكان المحيطين بالمصنع. وفي خضم

الأحداث، لاحظ أخي مروان خروج أربعة عمال من المصنع متوجهين إلى المسجد للصلاة. دخل مروان ليصلي معهم، وصليت أنا في مصلى النساء، ثم انتظرناهم معًا عند باب المسجد.

في البداية، عرَّفناهم بأنفسنا، وقلت لهم:

"سمعنا من الجيران أن المصنع يسبب لهم بعض أمراض الربو والفشل الكلوي وسرطان الكبد."

رد أحدهم مبررًا:

"لو كان ما تقولونه صحيحًا، لما كنا نحن موجودين الآن في هذه الحياة."

استرسلنا في الحديث معهم، وبدأت أسجل كل ما يقولونه. علمت منهم أسماء المنتجات التي ينتجها المصنع، ووقع أحد العمال في خطأ بالكلام، إذ حكى لنا كيف تسبب تصنيع هذه المنتجات في وفاة بعض زملائهم.

نهره زميله ليصمت، ثم انصرفوا بحجة أنهم تأخروا عن العمل.

لا أنكر أننا كنا سعداء بالانتهاء من هذا التقرير المسجل صوتًا وصورة، وبكم المعلومات الموثقة من الجيران وعمال المصنع.

بعدها عدنا إلى البيت وبدأت بتفريغ التسجيلات وكتابتها على الورق، لكنني انتبهت إلى صوت مروان وهو يقول متذمرًا:

"وعدتِني أن تقومي بدعوتي إلى الغداء في المطعم، هيا بنا، فلن أقبل منك عذرًا."

ذهبت معه على مضض إلى أحد المطاعم الفخمة جدًا، ووضعت يدي على قلبي وأنا أقول لهمسٍ مشاكس:

"من المؤكد أن فاتورة الأكل هنا ستدخلنا السجن يا أخي العزيز!"

مر اليوم بسلام، ورجعنا إلى البيت سالمين. ظللت طيلة الليل مستيقظة حتى أنهي كتابة التقرير لأسلمه صباحًا لرئيس التحرير.

ومع إشراقة يوم جديد، وفي تمام التاسعة، كنت أقف أمام باب رئيس التحرير. دخلت إلى الغرفة، وألقيت السلام، ثم مددت يدي وأعطيته التقرير. رأيت ابتسامة ترتسم على وجهه، وقال وهو ينظر في الأوراق:

"سعادتي بالتقرير أنه ليس ملفقًا ولا منقولًا من الإنترنت، بل هو تقرير حقيقي وموثق."

ثم شكرني، واستأذنت بالخروج.

ما أن نُشر الخبر في الجريدة حتى هاجت الدنيا بسببه، وذاع صيتي في البلدة. تلقيت التهاني والتبريكات من الجميع، واتصل جدي الحبيب ليهنئني، فقد كان سعيدًا جدًا بما فعلت.

ولكن تأتي الرياح بما شاء الإله لها، فوجئنا أنا وأسرتي بتلقي تهديدات من مجهولين. هددوني إن لم أترك هذا الملف، فسوف أتعرض للأذى. أصبحت مهمومة، أبكي حالي، حزينة. حدثت نفسي في صمت وشرود:

"ماذا حدث؟ ماذا فعلت لكل هذا؟!"

انتبهت من شرودي على خبر أشد ضراوة على نفسي، إذ اتصل أخي بأبي ليخبره أنه عند خروجه من العمل، وجد سيارته محطمة تمامًا.

هذا الخبر المحزن جعل أبي في حالة ذهول، وقرر أن يبعدني عن حلم حياتي، ولو غصبًا. وبالفعل، تركت الصحافة رغمًا عني، وهذا ما أحدث في قلبي قهرًا ووجعًا لا يعلمه إلا الله.

في تلك الفترة، تقدم عدد من الخُطاب لطلب يدي للزواج. كنت في ذلك الوقت أتابع داعية إسلامي، فسألته:

"على ماذا أبني موافقتي على شريك الحياة؟ فقد تقدم لي الكثير من الخُطاب."

فقال لي ناصحًا:

"تزوجي الذي يحب الله ويدافع عن دينه."

في اليوم التالي مباشرة، وصلتني رسالة من أخت هذا الداعية تقول لي إنه يريد أن يتزوجني. تهلل وجهي، فقد كنت أشعر نحوه بالقبول، وأتمنى الزواج برجل مثله. وبعد أيام، جاء بالفعل لخطبتي، وبعد الاتفاق بين الأسرتين تمت الخطبة.

حينها نشرت عبر حسابي الشخصي على "فيسبوك" أنني خُطبت للداعية "يوسف". فانهالت عليَّ التبريكات من جميع الأصدقاء.

بعدها، وصلتني رسالة أخرى، وكانت من جورج يسألني فيها:

ملك، رأيت ما نشرتِه عن خطبتكِ، متى حدث ذلك...

وكيف؟

قلت:

خُطبت أمس، الحمد لله.

رد بحزن استشعرته حين كتب بإيجاز:

مبارك.

واكتفى بالصمت، فكتبت له، مُغيِّرة الموضوع:

أريد أن أنشئ (جروب) سأقوم بإضافته فيه، كما سأضيف بعض الأصدقاء، هم أم زكريا، وهيلين زميلتي في الجريدة، وصديقتي ماريان، حتى يتسنى لنا أن نتناظر ونتناقش ونرد على أي شبهات.

ثم أنهيت كتابة الرسالة بسؤال:

ما رأيك، جورج؟

فكتب مؤيدًا:

موافق.

ثم أتبع رده برسالة كانت لي مفاجأة انتظرتها طويلًا، فكتب:

لقد نويت أن أشهر إسلامي قريبًا.

تهللت أساريري وباركت له. بعد ذلك، أنشأت جروبًا حتى نكمل مناقشة الكتاب المقدس، بالاتفاق مع خطيبي يوسف الذي

حثني على أن أكمل طريقي، وأكد أنه سيتعرف إلى جورج حتى يقنعه بالتعجل في الدخول إلى الإسلام، فخير البر عاجله.

وقتئذٍ قلت ليوسف:

لا أعلم لماذا تأخر في هذا القرار الحاسم.

قال يوسف مبررًا:

ربما كان لا يزال متشككًا. اتركي لي المجال لأتحدث معه.

وبالفعل، بدأ يوسف بالتحدث مع جورج. وبعد فترة قصيرة، قرر جورج أخيرًا أن يعتنق الإسلام، ولكن الأمر سيكون في السر حتى يحين الوقت المناسب من وجهة نظره لإشهار إسلامه.

****

«٦»

في الجريدة

مرت عدة شهور تزوجت بعدها بيوسف، كان زفافًا على الطريقة الإسلامية، شعرت وقتها بالسعادة والاطمئنان بأن الله قد عوضني خيرًا. حضرت ماريان وهيلين وبعض الزملاء الذين تحدثوا مع يوسف ليقبل بعودتي للعمل في الجريدة بعد زواجنا. فوجئت بجورج يقف أمامي أنا ويوسف، احتضنه يوسف بقوة وبعد إلقاء التحية، عبرت له عن سعادتي بهذه المفاجأة، كانت تقف بجانبي وقتها هيلين التي عرفتها إلى جورج، فهزت رأسها محيية إياه وهي تقول:

بالطبع أعرف جورج، إنه معنا في الجروب وأرى بعض آرائه، وأحيانًا كنت أتناقش معه.

ثم نظرت إليه هيلين وسألته:

جورج، هل تذكرتني؟

أومأ جورج برأسه إيجابًا ثم قال:
نعم، تذكرتكِ، أهلًا هيلين.
نظرتُ إلى هيلين بابتسامة ثم قلت موجهة كلامي لجورج:
هيلين صديقتي في الجريدة التي كنت أعمل فيها!
رحب بها وظلا يتناقشان في بعض المواضيع والمقالات التي تنشر في الجريدة، وانشغلت أنا ويوسف بالحضور. بعد ساعتين انتهت حفلة زفافنا وذهبنا إلى بيت الزوجية الذي سيكون ملاذنا الآمن، وتعاهدنا أنا ويوسف على أن أكون له نعم الزوجة الصالحة، ويكون هو زوجًا تقيًا صالحًا لي أيضًا.

بمرور شهر على زواجنا، بدأت في عملي في الجريدة مرة أخرى بعد أن وافق يوسف شريطة أن أعمل من المنزل وأن أرسل إلى الجريدة المقالات التي أكتبها عبر الرسائل الإلكترونية لتُنشر. إلى أن راسلتني هيلين ذات يوم لتسألني عن حالي وتطمئن عليَّ، وبعدها أخذنا النقاش وجاءت سيرة جورج، وقتها أخبرت هيلين بأمر جورج وبإسلام جده نعيم.
فوجئتُ بردها وهي تقول:

لقد حكى لي جورج كل شيء، وأيضًا أخبرني بأنه ترك النصرانية ودخل في الإسلام، وأعلم أنه لم يعلن إسلامه إلى الآن.

كنت أتمنى أن أقول لها العقبى لكِ وأنني أنتظر خبر إسلامكِ بشوق كبير، ولكن هيلين كانت مسيحية متعصبة لدينها، متحررة في الوقت ذاته، فقلت في نفسي إن جورج من المؤكد سيتكلم معها ويحاول إقناعها، خصوصًا أنني شعرت من كلامها بمدى إعجابها بشخصيته وآرائه. وفي وسط كلامنا، أخبرتني هيلين بأن صدمتها كانت كبيرة عليها عندما علمت بخبر إسلام جورج، وأنها كانت تتمنى أن تتزوج به لأنها تشعر تجاهه بمشاعر الحب، ولكنها في الوقت ذاته أكدت لي بأنها تحب أن ترتبط بشخص على نفس دينها ونفس تفكيرها، أي مَن يؤيدها في عقائدها.

ثم أردفت تقول:

حتى وإن وافقت أن أتزوج برجل مسلم، أخاف أن تحدث مشكلات مستقبلية بسبب اختلاف الدين، كما أنني متأكدة من رفض أهلي لهذا الزواج، والقساوسة في الكنيسة أيضًا سيعاقبونني، خاصة أن الكلمة الأولى والأخيرة لهم، حيث إن الكنيسة لها السطوة الكبرى على الشعب الكنسي.

قلت لها في حزن:

أعلم ما تفعله الكنيسة بالفتيات اللاتي يعلنَّ إسلامهن، ولكن ليست هذه المشكلة، المشكلة الآن أنك لا تؤمنين إلا بعقائدكِ، تريدين أن تستوعبي بأن الدين الإسلامي هو الحق، ولو افترضنا أن جورج معجب بكِ، فلن يقبل بالزواج إلا من مسلمة مثله تؤمن بالله ورسوله.

قالت في يأس:

لا أعتقد بأنه معجب بي، فهو لم يقل لي ذلك من قبل، أنا فقط أحبه من طرف واحد، أما هو فلا أظن أنني آتي على باله من الأساس.

انتهى كلامنا واستأذنتها، ثم جلست في الشرفة وظللت أفكر وأسأل نفسي في همس: «هل يا ترى من الممكن أن يتزوج جورج بهيلين ويجعلها تعتنق الإسلام بعدما يقنعها؟ أم أنه سيرفض الزواج منها وهي على غير دينه؟». تنهدت بملل وقلت لنفسي: «من المحتمل أن جورج لا يحبها من الأساس، فكيف سيتزوجها إذن؟! كما أنه لا يعلم بأمر حبها له! ».

«٧»

إشهار إسلام

ذات صباح بينما نتناول طعام الإفطار أنا ويوسف، نظرت إليه وسألته في اهتمام:

هل تعتقد أنه من الممكن أن يحب جورج هيلين ويتزوجها حتى وإن كانت ما تزال على دينها، أم سيرفض؟

نظر إليّ باستغراب وأجاب عن سؤالي بسؤال:

وهل جورج يحبها بالفعل أم لا؟

زفرتُ بأسى وقلت:

إن هيلين تحبه ولكنها لا تعلم هل يحبها هو أم لا.

هز رأسه متفهمًا وقال:

شرعًا يجوز له أن يتزوجها، ولكن ما يحيرني هو لماذا ترفض هيلين اعتناق الإسلام بعد كل تلك المناظرات التي حضرتها معكم ومع أم زكريا؟

أجبته بحزن:

إنها عنيدة.

فقال بهدوء وثقة أدهشتني:

ولكنها طيبة، وأشعر بأنها ستعتنق الإسلام قريبًا. على العموم، سوف أتحدث إلى جورج بأمرها لعله معجب بها هو أيضًا ويخشى البوح بذلك، وربما عندما يتزوجها يستطيع هو إقناعها.

بعد أيام، زف إليّ يوسف خبرًا جميلًا أسعدني، وهو أن جورج عرض الزواج على هيلين، فقد اعترف له أنه يحبها. بل وأخبرني بما أسعدني أكثر من ذلك بكثير حين قال مهللًا مبتهجًا:

ولكِ عندي خبر أجمل، لقد أقنع جورج هيلين باعتناق الإسلام.

ثم قص عليَّ كيف كانت هيلين قلقة ومتخوفة من أهلها والكنيسة، ولكنها وافقت بعد أن عرض عليها جورج الزواج وطمأنها بأنه سيأخذها معه إلى أمريكا، وبذلك لن يؤذيها أحد.

هللتُ أنا الأخرى من فرحتي وظللت أصفق بيدي. يا الله، كم أنا سعيدة بهذه الأخبار! لم أطق الانتظار كي أرى هيلين، فهاتفتها وباركت لها. وأخبرتني أن جورج تقدم لخطبتها واتفقا معًا على أن يظل خبر إسلامهما وكل ما سيفعلان سرًا. وأن جورج سيغير اسمه إلى زكريا حبًا في النبي زكريا عليه السلام كفيل السيدة مريم، ولأن أم زكريا لديها طفل جميل اسمه زكريا، عندما حدثته عنه ذات مرة أحب الاسم.

ثم استشارتني في تغيير اسمها من هيلين إلى لينا. فاقترحت عليها أن تختار من بين أسماء أخرى كثيرة وجميلة كعائشة وخديجة ومريم وحفصة، إلا أنها قالت بتردد:

لا أريد تلك الأسماء. أنا أحب اسم هيلين. أفكر في عدم تغييره، ولكن جورج يريدني أن أغيره حتى نبدأ حياتنا الجديدة من أولها كصفحة بيضاء منذ دخولنا في الإسلام، ولكنني ما زلت مترددة.

ابتسمتُ وقلت لها:

كما تشائين، المهم أنكِ أصبحتِ مسلمة والحمد لله.

بعد انتهاء المحادثة بيننا، انتابني كثير من القلق الذي لم أدر له سبباً واضحًا. ربما لأنني لاحظت في نبرة صوت هيلين التوتر والريبة، ولكنني بعد تفكير طويل حدثت نفسي بأنها قد تكون فقط قلقة من أن ينكشف سرهما.

علمت من جورج وهيلين أنهما بدأا في استخراج شهادات إشهار إسلامهما بالفعل، وتغير اسم جورج إلى زكريا من الأزهر، بينما ظلت هيلين مصرة على عدم تغيير اسمها، فقط غيرت الديانة إلى مسلمة. وبعد استخراجهما الأوراق سرًا، قاما باستخراج بطاقات شخصية جديدة لكليهما وغيرا فيها ديانتهما من المسيحية إلى الإسلام.

بعد أيام، جاءت لزيارتنا هيلين وبعدها بساعات جاء جورج، كان جدي في ضيافتنا هو الآخر، فجلسنا نتبادل أطراف الحديث. فبدأ جورج موجهًا كلامه لهيلين وقال:

علينا أن نذهب إلى المأذون ونتزوج في أقرب وقت يا هيلين، فأنا الآن أجهز أوراق سفركِ، وبعد أيام قليلة سيكون كل شيء جاهزًا.

ردت هيلين وقالت متسائلة:

ولكن هل يجوز لي أن أتزوج دون ولي؟

رددتُ عليها وقلت مؤكدة:

نعم، يجوز أن تزوجيه نفسك يا هيلين، لأنه يشترط في ولي المرأة المسلمة أن يكون مسلمًا.

فأكمل يوسف مؤكدًا:

أحسنتِ يا ملك، وقد قال ابن قدامة رحمه الله: "أما الكافر فلا ولاية له على مسلمة بحال، بإجماع أهل العلم."

شاركنا جدي الرأي وقال:

يمكنك يا جورج أن تولي أمر هيلين لأحد عدول المسلمين فيعقد لك عليها في وجود شاهدين، فلا ولاية لأوليائها الكفار عليها بعد إسلامها.

اقتنعت هيلين على مضض، هكذا شعرتُ أنا، لا أدري لماذا.

حُدّد ميعاد زواجهما، فذهبنا جميعًا إلى المأذون وعُقد القران، وكان جدي هو ولي هيلين، ويوسف شهد على عقد زواجهما هو وأخي مروان. وبعد أسبوع، سافرا إلى أمريكا. وكان أول منشور نشره جورج عبر حسابه الشخصي على فيسبوك هو إعلان إسلامه،

وكتب الشهادتين: "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله".

ثم كتب تحتهما: "الحمد لله رب العالمين، لقد أصبحت مسلمًا واسمي الآن زكريا".

ذاع الخبر بعد أن هاتفت هيلين والدتها وأخبرتها بأنها أعلنت إسلامها وتزوجت. فانقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وظل أهلها يرسلون لها رسائل التهديد، فأغلقت هاتفها وحسابها الشخصي نهائيًا، لكنها ظلت تراسل الجريدة عبر حساب آخر لترسل مقالاتها التي تكتبها كي تُنشر.

«٨»

المسيح يناديك

في يومٍ ما، كتبت ماريان منشورًا على حسابها الشخصي جاء فيه: "يسوع مدفيني، إنه تجسد من أجلي، مات عشاني!" أثار هذا المنشور استيائي، فقررت أنا ويوسف أن نؤسس مجموعة أخرى غير القديمة فقد أغلقها الفيسبوك، تحت عنوان "المسيح يناديك"، لنبدأ بتصحيح المفاهيم الخاطئة التي قد تحملها ماريان وغيرُها من النصارى.

توالت طلبات الانضمام إلى المجموعة، وزاد عدد الأعضاء بسرعة. قمت بطلب المساعدة من أم زكريا، واستأذنتها في المشاركة بالحوار مع النصارى، فأبدت ترحيبها قائلة: "على الرحب والسعة."

فجأة، دخلت ماريان المجموعة وكتبت: "يسوع يحبك ومات عشانك"، مما أثار حفيظتي. لكن أم زكريا لم تتردد في الرد،

فكتبت: "ولماذا يموت المسيح من أجلي؟ ما الذي فعلته من ألفي عام حتى ينتحر من أجلي؟ الرب يقول في إرمياء: 'بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ يَمُوتُ بِذَنْبِهِ. كُلُّ إِنْسَانٍ يَأْكُلُ الْحِصْرِمَ تَضْرَسُ أَسْنَانُهُ.' (إر ٣١: ٣٠)."

ردت ماريان قائلة: "كّلنا ورثنا خطية آدم والرب سيحاسبنا عليها إن لم تؤمني به مخلصًا لك."

فكتبت أم زكريا: "ولكن ما تقولينه يخالف ما جاء في الكتاب، والذي يقول إن كل واحد يتحمل ذنبه. كذلك قال: 'اَلنَّفْسُ الَّتِي تُخْطِئُ هِيَ تَمُوتُ. الاِبْنُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الأَبِ، وَالأَبُ لاَ يَحْمِلُ مِنْ إِثْمِ الابْنِ.' (حز ١٨: ٢٠)."

ثم تابعت أم زكريا مستشهدة بمزيد من النصوص: "'لأَنَّكَ بِكَلاَمِكَ تَتَبَرَّرُ وَبِكَلاَمِكَ تُدَانُ.' (مت ١٢: ٣٧)."

أصيبت ماريان بالقلق وردت: "الله مات لأنه يحبنا."!

فأجابت أم زكريا: "بالتأكيد، من مات هو شخص عادي، لأن الله لا يموت كما أخبرنا في رسالة بولس الأولى إلى تيموثاوس: 'الَّذِي

وَحْدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوَاتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لا يُدْنَى مِنْهُ.' (١ تي ٦: ١٦)."

محتدةً، كتبت ماريان: "الذي مات هو يسوع، الله المتجسد."!

عادت أم زكريا لتؤكد: "يسوع إنسان ابن إنسان، والكتاب يقول إن الله ليس إنسانًا ولا ابن إنسان. إذن فالله لم يتجسد قط، ولم يقل: أنا الله المتجسد."

أحست ماريان بأنها محاصرة في زاوية النقاش، فكتبت: "لا تعليق."

تدخل زكريا الذي كان يتابع التعليقات، وكتب لماريان: "لقد وقعتِ في الفخ يا ماريان. كنتِ متحمسة جدًا، ولكن حدث ما لم يكن في حسبانك، فإن كنتِ على حق، اثبتي لنا وأخبرينا بردكِ على هذا الكلام."!

في المساء التالي، تفاجأنا جميعًا برؤية صور الحوار الذي دار بين أم زكريا وماريان في الصفحة الأولى من جريدة الأضواء. فقد قامت هيلين بتصوير الحوار ونشره دون إذن من أي أحد، تحت عنوان "حوار ماريان مع أم زكريا الأثرية حول قضية الخطية الجدية."

أثارت المقالة ضجة في الكنيسة، وبدأ الجميع يتساءل: من هي أم زكريا الأثرية؟ والأكثر غرابة هو كيف استطاعت هيلين نشر هذا الكلام بجرأة دون استئذان؟

خلال أيام، انتشرت صور الحوار عبر العديد من الصفحات على مواقع التواصل الاجتماعي، وبدأ كثير من النصارى يطرحون تساؤلاتهم حول ما نشر، مثل: "كيف أخفت علينا الكنيسة والقساوسة تلك النصوص الخطيرة؟ كيف يقول الكتاب المقدس بأن الخطية لا تورث بينما تؤكد الكنيسة أنها موروثة؟".

«٩»

اعتراف

بعد مرور ستة أشهر، علمت أن زكريا وهيلين قد التحقا بإحدى الجامعات في أمريكا لاستكمال دراستهما العليا. كما أن هيلين كانت حاملًا، وقد قررت هي وزكريا أن تلد هناك حتى يحصل ابنهما على الجنسية الأمريكية. شعرت بحزن عميق عندما اتصل زكريا بيوسف، مُشتكيًا من هيلين التي أرهقته بمحاولاتها المستمرة لإقناعها بالصلاة. لكنها كانت ترفض، متذرعةً بأنها غير قادرة على الصلاة بسبب الحمل.

اقترحنا عليه أن تجعلها تصلي وهي جالسة، فهذه حجة مقبولة بسبب حالتها. لكن زكريا أخبرنا أنه قد حاول كل ذلك، إلا أن هيلين مُصممة على عدم الصلاة. ومع اقتراب عودتهما إلى مصر بعد ولادتها، حذرته من أهل هيلين، لكنه طمأنني بأنه يحمل الجنسية

الأمريكية، وسيحاول مساعدة هيلين في الحصول على الجنسية قبل عودتهما إلى مصر. كان يهدف بذلك إلى حمايتها من الكنيسة وأهلها، الذين قد يتسببون في عودتها إلى دينها القديم، وهذا ما كان يقلقه بالفعل، حيث لاحظ تغيرًا واضحًا في سلوكها.

وبالفعل، بعد أن وضعت هيلين مولودها، جاء زكريا بهما إلى مصر في سرية تامة، دون أن يعلنا عبر صفحاتهم الاجتماعية عن وجودهم هنا، حتى لا تصل المعلومات إلى الكنيسة أو أهل هيلين.

تواعدت مع هيلين للذهاب إلى منزل أم زكريا، وما إن وصلنا حتى فتحت لنا الباب شابة يافعة رحبت بنا بحرارة، وأخبرتنا بلطف أن أم زكريا ستأتي لاستقبالنا بعد قليل. بعد لحظات، ظهرت أم زكريا مبتسمة، ورحبت بنا بسعادة كبيرة، ثم قدمت لنا أشهى المأكولات.

دخلت الشابة التي استقبلتنا، فعرفتنا إليها أم زكريا وهي تشير بيدها وتقول بابتسامة:

هذه "حور" من لبنان.

رحبت حور بنا مجددًا بابتسامة رقيقة، وعندما سألتها كيف تعرفت إلى أم زكريا، ردت قائلة بابتسامة لطيفة:
منذ عام تقريبًا، تواصلت مع أم زكريا وأخبرتها بأني محطمة نفسيًا، وأنني كنت أفكر في الانتحار. الغريب أنها قالت لي مؤيدة:
انتحري يا حور، ولا تنسي أن تسلمي على أبي لهب في النار.
تعجبت من ردها، وبدأت أتعصب وأقول لها:
لماذا لم تقنعيني بعدم الانتحار؟ لماذا لم تسألي عن سبب إقدامي على هذه الخطوة؟
قاطعتها أم زكريا، مبتسمة وهي تتذكر ما حدث بينهما قبل عام:
أتعلمين ماذا قال الله تعالى في القرآن لتتجاهلي كل هذا وتفكري في الانتحار؟
ردت حور:
أنا وقتها كنت متشككة في القرآن ورسول القرآن، ولهذا كرهت حياتي.
سألت أم زكريا بتعجب:
لماذا أيدتِ "حور" في فكرة الانتحار؟
أجابتني بقوة:

الحياة غالية على صاحبها.

ثم وجهت حديثها إلى حور قائلة:

لذلك لن يكون عندك أغلى من نفسك عليك. لو دخلت مباشرة في جدال معك لأثنيتك عن الانتحار، ستعاندينني وتتركينني. لكنني أعرف جيدًا من أين تُؤكل الكتف.

قالت حور:

أم زكريا استطاعت أن تردني لدين الله. كنت الفتاة المتبرجة التي تسهر يوميًا في الديسكو وكافيهات منتصف الليل، ومعظم أصدقائي من الرجال. كان حالي كحال معظم فتيات جيلي، للأسف الشديد.

تابعت حور:

لم تأمرني أم زكريا بالحجاب، ولم تقل لي لا تخرجي من بيتك ليلًا، ولا تصاحبي الذكور. كانت تعظني دون أن تشاركني في الحوار.

استرسلت حور:

هناك فتاة مصرية كانت معي في المجموعة النسائية التي أنشأتها أم زكريا، وكانت تقول لها: أنا أريد أن أرتدي النقاب. فقالت لها: لا تلبسيه الآن.

تعجبت جدًا وسألت أم زكريا:
لماذا قلتِ لها لا تلبسيه الآن؟
أجابت:
لأنها حديثة في الحجاب.

فسألتها:
أنا غير محجبة، كيف أخطو هذه الخطوة؟
نصحتني ببساطة:
اشتري حجابًا والبسيه. بسيطة أعتقد ذلك.
لقد كنت لا أعلم شيئًا عن ديني سوى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فضمتني أم زكريا إلى شات المسلمات الجدد وعلمتني أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات. ثم تعلمت كيفية الوضوء والاغتسال، وأذكار الصباح والمساء وقبل النوم، والكثير من الأمور.
شعرت أن حياتي تبدلت من بنت عاصية لربها متبرجة، تكره الحياة وتفكر في الانتحار، إلى بنت مسلمة تحب الله ورسوله، محجبة، مقبلة على الطاعة، ومحبة للحياة.

وها أنا أمامكم الآن، أدعو الله من خلال صفحات أم زكريا، حيث سمحت لي بنشر الأحاديث والرد على المتابعين بـ "اللهم آمين، وجزاكم الله خيرًا". وبفضل الله ثم دعوات أم زكريا واحتوائها لي، بدأت في حفظ القرآن، وحفظت ١٥ سورة قصيرة، وقريبًا إن شاء الله سأتزوج بشاب ملتزم من ترشيحات أم زكريا لي، وقد عرف عني كل شيء.

في كل ذلك الوقت، كانت هيلين تستمع لما يدور بيننا في صمت، ولا تتكلم. رأيت سحابة حزن تلف وجهها، وأخيرًا تكلمت وسألت حور:

ما الشعور الذي كان مسيطرًا عليكِ عندما كنت ترغبين في الانتحار؟

قالت بحزن:

كنت أشعر أنني بلا قيمة في تلك الحياة.

ردت أم زكريا موضحة وجهة نظر حور:

إن المُنتحرَ يموت على كبيرةٍ عظيمة من الكبائر، مهما كان سبب الانتحار، وأمره في النهاية إلى الله، فإمَّا أن يُعذبه، وإمَّا أن يغفر له، عدا من يستحل الانتحار، فيموت كافرًا.

ثم أضافت:
وأما حكم المُكره على الانتحار بصورتيه؛ كَمَن قيل له: "اقتل نفسك وإلا عذبتك حتى الموت"، أو "اقتلي نفسي وإلا قتلتك"، فهناك تفصيل بين الفقهاء.
تساءلت هيلين قائلة:
ما حكم المنتحر في الكتاب المقدس؟
قالت أم زكريا:
ليس في التناخ العبراني ولا في الأناجيل نص صريح بتحريم الانتحار، وإنما استُنبط من قوله في التوراة: "وأما أنتم الملصقون بالرب إلهكم، فجميعكم أحياء اليوم" (تثنية ٤: ١٥).
وأضافت:
فدلَّ بمفهوم المخالفة أن قاتل نفسه بعيد مطرود عن ربه، وقد نُصَّ عليه في مجمع قرطاجة عام ٣٤٨م. وفي رسالة يوحنا الأولى (Jn1-3-15): "كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس. وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه".
سألتها هيلين:
وماذا عن القرآن، هل فيه نص صريح بتحريم الانتحار؟

ردت أم زكريا:
نعم، فالنصُّ صريح من قوله: "ولا تقتلوا أنفسكم" (النساء: ٢٩).
واللفظُ مشتملٌ على قتل النفس، وقتل الغير.
تذكرتُ الحوار الذي نشرته هيلين بين أم زكريا وماريان فقلت لأم زكريا:
حوارك مع ماريان قلب الدنيا يا أم زكريا، كان بسيطًا، ومؤثرًا.
قالت هيلين بوضوح وثقة:
لقد أعجبت بالحوار الذي أجريناه، لذا قمت بنشره، وقد لاقى صدى واسعًا على السوشيال ميديا.

نظرت إليها أم زكريا، وبتعبيرها الجاد سألتها:
وكيف حالكِ بعد الإسلام؟ وما هي علاقتكِ بالقرآن والصلاة؟
ردت هيلين بصوت رتيب، مما أثار الشك في قلب أم زكريا. كانت تعبر عن مشاعرها بأسلوب يشي بجرح عميق يتخطى حدود الكلمات، "إن أراد الله لي الهداية فسوف يهديني، لكن يبدو أنه لا يريد ذلك. كما جاء في قرآنكم: 'يهدي من يشاء ويضل من يشاء'.

كيف يمكنكم أن تطلبوا لي الهداية بينما الله هو من أضلني عن دينه؟"

تأملتها أم زكريا، ولاحظت ثباتها رغم حالة الاضطراب التي كانت تعيشها. اجتمعت شجاعتها وهي ترد بحزم: "النبي محمد صلى الله عليه وسلم كان يدعو للكفار بالهداية. هل تعلمين قصة الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه؟ عندما طلب من النبي أن يدعو الله على قبيلته دوْس بسبب عصيانها لله ورفضها الإسلام، قال له النبي: 'اللهم اهدِ دوْسًا وائتِ بهم.'"

ثم أضافت أم زكريا، مشيرة إلى أهمية ما ستقوله: "أما قولك 'الله هو الذي أضلك عن دينه'، فأود أن أوضح لك شيئًا مهمًا. إرادة الله الإلهية تتنوع إلى نوعين: الإرادة الكونية القدرية، والإرادة الدينية الشرعية. هذه النقطة تتطلب تفكيرًا عميقًا، وقد يكون صعبًا عليكِ، لذا سأختصر وأرد عليكِ من الكتاب المقدس، الذي يعلن أن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء."

تابعت أم زكريا، متمكنة من نقل الرسائل بمهارة: "في رسالة رومية ٩:١٦، نجد: 'فَإِذًا لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلاَ لِمَنْ يَسْعَى، بَلْ للهِ الَّذِي يَرْحَمُ'. وتقول الآيات ١٧-١٨: 'لأَنَّ ٱللهَ يَقُولُ الْكِتَابُ لِفِرْعَوْنَ:

إِنِّي لِهَذَا بِعَيْنِهِ أَقَمْتُكَ، لِكَيْ أُظْهِرَ فِيكَ قُوَّتِي، وَلِكَيْ يُنَادَى بِاسْمِي فِي كُلِّ الأَرْضِ. فَإِذًا هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، ويُقَسِّي مَنْ يَشَاءُ'."

ثم قالت بحماسة: "وفي رومية ١:٢٤، نجد: 'لِذلِكَ أَسْلَمَهُمُ اللهُ أَيْضًا فِي شَهَوَاتِ قُلُوبِهِمْ إِلَى النَّجَاسَةِ، لإِهَانَةِ أَجْسَادِهِمْ بَيْنَ ذَوَاتِهِمِ'. وقد أوضح تفسير تادرس يعقوب أن الله يكرم الحرية الإنسانية، وقد تركهم ليختاروا ما يريدون، فمارسوا شهواتهم الشريرة."

استمرت أم زكريا، وهي تلاحظ تركيز هيلين: "المعنى هنا واضح! وفي رومية ١١:٨، يقول: 'كما هو مكتوب، أعطاهم الله روح سبات وعيونًا حتى لا يبصروا وآذانًا حتى لا يسمعوا إلى هذا اليوم'. يضيف تفسير أنطونيوس فكري: 'نظرًا لعنادهم، رفع الله عنهم نعمته، فازدادوا عمى وصمم كمن في سُبَاتٍ'."

أنهت أم زكريا حديثها بعبارة قوية: "وفي إشعياء ١٠:٦، نجد: 'غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه واطمس عينيه لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنه، ويفهم بقلبه ويرجع فيُشفى'." وتفسير تادرس يعقوب هنا يُشير إلى أن الله أعماهم وأغلظهم بمجرد تركه إياهم وسحب معونته عنهم. بهذه النصوص أكون قد أثبتُّ لكِ، هيلين، أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، كما ورد في كتاب آبائك.

تساءلت هيلين بفضول: "هل من الممكن أن يهتدي الكل؟ أم أن هناك من يدخل الملكوت وهناك من يدخل الهلكوت؟"
أجابت أم زكريا بوضوح: "إذا كان بإمكان الجميع دخول الملكوت، فلماذا إذن خلق إلههم بحيرة الكبريت؟ أنتِ التي تختارين أين تذهبين. أنتِ التي تحددين مصيركِ: إما جنة وإما نارا!"
تذكرت أم زكريا آيات الله في القرآن الكريم التي تقول: "إنَّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أجرَ من أحسَنَ عملًا." وأيضًا "من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وما كنا معذِّبين حتى نبعث رسولًا."
تابعت قائلة: "الكتاب المقدس أيضًا يقول: 'فَيَفْرَحُونَ لأَنَّهُمْ هَدَأُوا، فَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْمَرْفَأ الَّذِي يُرِيدُونَهُ'." (مزمور ١٠٧: ٣٠). المعنى هنا هو نفسه؛ الله يهدي من يريد الهداية، ويضل الفاسق العاصي المتكبر، ويمدهم في طغيانهم يعمهون.
واصلت أم زكريا، مُسلطة الضوء على فئة من الناس تستحق الضلال: "كما هو مبين في الآيات: 'سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلًا، وإن يروا سبيل الغيّ يتخذوه

سبيلًا. ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين.' (سورة الأعراف: ١٤٦). و'فريقًا هدى، وفريقًا حق عليهم الضلالة. إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، ويحسَبون أنهم مهتدون.' (سورة الأعراف: ٣٠)."

أضافت أم زكريا: "'وما كان الله ليضل قومًا بعد إذ هداهم، ليبين لهم ما يتقون. إن الله بكل شيء عليم.' (سورة التوبة: ١١٥). 'ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه، قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب.' (سورة الرعد: ٢٧). 'يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء.' (سورة إبراهيم: ٢٧)."

واستمرت: "'يا أهل الكتاب، قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرًا مما كنتم تخفون من الكتاب، ويعفو عن كثير. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين.' (سورة المائدة: ١٥). 'يهدى الله من اتبع رضوانه سُبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم.' (سورة المائدة: ١٦). 'والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم.' (سورة محمد: ١٧). 'يا أيها الذين آمنوا، إن

تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم.' (سورة الأنفال: ٢٩)."

ثم قالت بحزم: فلْتَعْلَمِي أن الله لا يضل أحدًا، بل هم 'فاستحبوا العمى على الهدى.'

لدينا، الله لا يضل من أراد الهداية ويبحث عنها، بل يسهل له الوصول إلى الحق. أما إله النصارى، فيضل كل البشر.

تأمل الكل في الكلمات التي قيلت، وبدأت الأمسية تتجه نحو لحظات من التفكير العميق. وضعت أم زكريا يدها برفق على كتف هيلين، محاولة أن تمنحها شعورًا بالاطمئنان.

أكملت أم زكريا، بصوت رقيق: "إرادة الله في النهاية لا تتعارض مع الحرية الإنسانية. إنما هي دعوة مفتوحة للجميع لاختيار الطريق الذي يودون سلوكه. وأنتِ يا هيلين، لديك القدرة على اتخاذ القرار."

ثم انتبهت إلى حزن هيلين، وأدركت أنها تخفي شيئًا ما. نظرت إليها بحنو، قائلة: "ماذا بكِ، يا هيلين؟ أشعر أنكِ تريدين التحدث، لكنكِ تمنعين نفسك وتكتمين الكلام بداخلكِ."

تجمدت هيلين للحظة،

في تلك اللحظة، شعرت هيلين بالقلق يتزايد في صدرها، لكنها تمسكت بعزيمتها لتكمل. تنفست بعمق، ثم قالت:

أنا في حيرة كبيرة. هناك جزء مني يريد أن يختار طريق الإيمان، لكن هناك جزء آخر يخاف من تغيير كل ما اعتدت عليه.

أم زكريا، وقد بدا عليها الاهتمام الشديد، قالت بلطف:

ليس من السهل أن نواجه مثل هذه المشاعر، هيلين. لكن من المهم أن نسمع ما يجول في قلبك. ما الذي يجعلك تشعرين بالخوف؟

هيلين نظرت إلى الأرض، وكأنها تبحث عن الكلمات المناسبة، ثم تابعت:

أحيانًا أشعر أنني أعيش في عالمين مختلفين. في جانب، هناك الإيمان والحق الذي أتوق إليه، وفي الجانب الآخر، هناك عائلتي وأصدقائي، وما تعودت عليه طوال حياتي.

ملك، التي كانت تتأمل هيلين بعناية، تدخلت:

أحيانًا، الاختيار بين ما نريد وما نملك يمكن أن يكون مؤلمًا. لكن عليك أن تتذكري أن الاختيار الصحيح، حتى لو كان صعبًا، هو الذي سيقودك إلى السعادة الحقيقية.

هيلين، وقد استشعرت دعم صديقتيها، تابعت حديثها:
أخشى أن يفقدني الجميع إذا ما قررت السير في هذا الطريق. هل سأكون وحيدة؟
أم زكريا، وهي تحاول طمأنتها، قالت:
لن تكوني وحدك. نحن هنا معك، وسندعمك في كل خطوة. تذكري أن الله لا يترك عباده في الظلمات.
تقدمت هيلين خطوة إلى الأمام، وكأنها تتخيل المستقبل أمامها:
أريد أن أكون صادقة مع نفسي، وأن أختار ما هو أفضل لي، لكن هل سأكون قادرة على ذلك؟
ملك وضعت يدها على كتف هيلين، قائلة:
بالإيمان والعزيمة، ستستطيعين ذلك. كل خطوة نحو النور هي بداية جديدة، فلا تخافي من الخطوات الصغيرة.
أم زكريا، التي كانت تراقب الموقف بقلق، تراجعت بفكرها للحظة، ثم قالت:
تذكري، القرار الذي تتخذينه هو لك وحدك. لا تدعي أحدًا يؤثر عليك سلبًا. ابحثي عن الحق الذي تشعرين به، واتبعيه بشجاعة.

هيلين، وقد بدأت تشعر بالراحة، وضعت يدها على قلبها، محاولة موازنة أفكارها ومشاعرها:

سأحاول أن أكون صادقة. لا أريد أن أعيش في خوف بعد الآن.

أم زكريا ابتسمت برضا، وأكدت:

هذا هو السبيل الصحيح. خطوة بخطوة، ستجدين طريقك. وعلينا أن نكون هنا لنساعدك في تلك الرحلة.

في تلك اللحظة، شعر الثلاثة أن هناك رابطة قوية تربطهم، وأن الصداقة الحقيقية تتجاوز كل شيء. هيلين، وهي تشعر بالتشجيع والراحة، أدركت أن لديها الدعم الذي تحتاجه لمواجهة تحدياتها.

فقالت هيلين:

السبب في ابتسامتي بداية حديثك يا أم زكريا واستغراب الجميع من نشر الحوار الذي نشرته، هو أنني ملحدة ولست مؤمنة بأي دين. موافقتي على الزواج بجورج كانت بسبب حبي الشديد له وخوفي من أن يبتعد عني. أوهمتُ الجميع بإسلامي حتى يوافق على الزواج بي. الحقيقة، أنا لا أؤمن بالأديان!

نزل الخبر علينا كالصاعقة، ألجم ألسنتنا، ولم نقوَ على الكلام. لم أكن أنكر أنني كنت أشك في إيمانها وأن إسلامها كان مجرد واجهة، لكني لم أتخيل أبدًا أنها ملحدة! ثم قلت في نفسي: لا فرق بينهما كثيرًا، فكلاهما كفر.

لكن المفاجأة كانت عندما قالت أم زكريا، بعدما تمالكت أعصابها:
إذن زواجك بزكريا باطل.
قلنا جميعًا في صوت واحد، من شدة الصدمة:
باطل!!
سألت متسائلة:
كيف هذا؟
أجابت أم زكريا مؤكدة:
نعم، يا بنات. لا يحل لمسلم أن يتزوج من امرأة مشركة، لقول الله تعالى: "ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤْمِنَّ" [البقرة: ٢٢١].
ثم أضافت:
لا تُؤَاخِذيني يا هيلين.
نظرت هيلين إلينا، وقد بدا عليها الغضب، وقالت بضيق واضح:

ولماذا عندما كنت أخفي إلحادي كنتِ تقرين زواجنا؟
أجابتها أم زكريا:
لقد أشهرتِ إسلامكِ علنًا، ولم نكن نعلم بحقيقة إلحادك إلا منذ قليل بعد اعترافك لنا. وهذا دين وشرع، ولست أنا من شرعتُ وأقررتُ هذا الأمر.
ثم أكملت:
الكافرة بصفة عامة لا تؤمن بالله ولا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، ولا بالقرآن الكريم. لقول الله تعالى: "وَلا تُمْسِكوا بِعِصَمِ الكوَافِرِ" [الممتحنة: ١٠].
استمرت أم زكريا في شرح القوانين الشرعية:
الله تعالى قال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ" [الممتحنة: ١٠]. ولم يستثن الله من النساء الكافرات المشركات إلا نساء أهل الكتاب فقط (اليهود والنصارى)، فيجوز للمسلم أن يتزوج يهودية أو نصرانية. أما غيرهما، فلا يجوز ذلك على أي دين كانت، فقال الله تعالى: "وَطَعَامُ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ" [المائدة: ٥].

قال السعدي رحمه الله: قوله تعالى: (وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ). لأن المؤمنة مهما بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصْصتها آية المائدَّة، في إباحةْ نساء أهل اَلكِتَاب كما قال الله تعالى: (وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قبْلِكمْ).

قال ابن قدامة رحمه الله: «فرخص من ذلك في أهل الكتاب، فمن عداهم يبقى على العموم، وسائر الكفار غير أهل الكتاب كمن عبد ما استحسن من الأصنام والأحجار والشجر والحيوان والنار، فلا خلاف بين أهل العلم في تحريم نسائهم وذبائحهم». وتابع الشيخ ابن باز رحمه الله قائلًا: «الزواج من كافرة إذا كانت من غير أهل الكتاب لا يجوز، والله سبحانه يقول: (لا هُنَّ حِلٌّ لهُمْ وَلا هُمْ يَحِلونَ لهُنَّ). وينبغي التنبيه هنا إلى أن المراد بالكتابية المرأة المتمسكة بدينها، حتى بعد تحريفه والتلاعب فيه من قِبل علمائهم. أما المرأة التي كانت كتابية ثم خرجت عن دينها وصارت ملحدة لا تؤمن بدين، فإنها لا يجوز الزواج بها».

فجأة، انتزع حديث أم زكريا انتباه هيلين، فبادرت قائلة:

"لو علم جورج بهذا سيتركني".

وبدت علامات القلق واضحة على وجهها. فسألتها أم زكريا، محاورة:

"وهل لو وجدتي جورج يجامع الحيوان هل ستتركينه؟"

أجابت هيلين بحدة:

"هذه أفعال شاذة لا ينبغي لعاقل أن يرتكبها. فالملحد لا ينبغي له أن يفعل ما لا يليق بمجتمعه وعادات بلده".

ثم تمتمت بنبرة حزينة:

"أنا تركت يسوع، ذاك الإله الضعيف المغلوب على أمره في كل جوانب الحياة".

أومأت أم زكريا برأسها، مشجعةً هيلين على مواصلة حديثها، لتخرج كل ما بداخلها من شكوك وتساؤلات. أما أنا، فكنتُ ما زلت في صدمة مما يجري حولي، لكنني حاولت إخفاء شعوري هذا. رغبتُ في طمأنة هيلين حتى لا تنفر من الكلام، فقلت بلطف:

"نسمعك بقلب رحيم يريد أن يصل بك إلى بر الأمان".

كانت هيلين تتنهد تنهيدة ذات صوت مسموع، وكأنها لن تستطيع الحديث أكثر. أغلقت عينيها، وضعت يدها على رأسها، وانفجرت بالبكاء مريرًا، تتمتم قائلة:

"لا تتركني يا جورج".
ثم نظرت إلينا، وبدت عليها علامات اليأس، وقالت برجاء:
"دعوني أتهيأ لهذا الأمر أولًا".
ردت أم زكريا بحنان:
"ناقشينا في كل ما لا يعجبك في الإسلام، وكل شيء يحول بينك وبين اعتناقه، لعلنا نفوز بهدايتك، ولن تخسري شيئًا".
تحججت هيلين قائلة:
"الإسلام فيه شبهات كثيرة جدًا لا أستطيع حصرها، هي حقائق لا تخفى على أصغر إنسان فيكم".
ردت أم زكريا بثقة:
"إذن سنتركك اليوم، ولكن عندما تعودين إلى البيت اكتبي لي جميع ما يدور في عقلك الناضج. فأنا مستبشرة بك خيرًا كثيرًا".
توجهنا بعد ذلك إلى إحدى المكتبات، حيث ابتعنا رواية «صديقتي التي أحببتُ دينها»، وهي الجزء الأول من هذه الرواية.
عُدنا إلى بيوتنا، ولكن بعد منتصف الليل، جاءني اتصال من هيلين.

استقبلتُ الاتصال، وكان قلبي يدق بقلق، فقلتُ في نفسي: "هل ستخبرني بمزيد من الشكوك، أم ستتحدث عن شيء جديد يجول في خاطرها؟"

تبكي وتقول:

- جورج عرف أنني ملحدة يا ملك! ماذا أفعل؟صحت بها قائلة:

- أنتِ تؤمنين بالله من قلبك يا هيلين!

«١٠»

هيلين والإلحاد

تسرب الشك إلى قلبي، وبدأت أتساءل في نفسي: هل كانت أم زكريا هي التي أخبرت جورج؟ بعد فترة قصيرة من الوقت، توجّهت إلى هيلين وسألتها كيف علم جورج بما يدور، رغم أننا اتفقنا مع أم زكريا على مناقشة الأمر أولًا قبل إخباره. لم يمضِ وقت طويل حتى أكدت لي هيلين ما كان يدور في خلدي، إذ قالت:

هاتفتْ أم زكريا جورج وأخبرته ألّا يعاملني كزوجة، وأوضحت له أنني محرمة عليه تمامًا، وأعلمته بالحكم الشرعي في الإسلام.

ثم بدأت هيلين تحكي لي ما حدث بينهما بعدما علم جورج بإلحادها،

فقالت: دخل جورج الغرفة، وأخذ مني طفلنا الرضيع سليم، وحمله بين ذراعيه، وبدأ يحتضنه ويبكي، ويقول: "امك ملحدة يا سليم!."

نظر إليّ في جمود، وسألني:
لماذا أخفيتِ عني إلحادك يا هيلين؟
أجبت بحنق:
لقد سبقتني، أنت من أخفى عني إسلامك، وجعلتني أحبك.
ردّ جورج بهدوء:
لم أخفِ عنك إسلامي، بل صارحتكِ به قبل الزواج، وأنتِ أعلنتِ إسلامك دون أي ضغوط مني.
ضحكتُ بسخرية، وقلت له:
أعلنتُ إسلامي تحت ضغط الحب، لكي أتيح لنفسي فرصة الزواج بك والاقتراب منك.
تنهد ثم زفر بقوة، وقال:
أنتِ الآن لستِ زوجتي، لأن عقد زواجنا أصبح باطلًا. أنتِ مجرد أم ابني، لا شيء أكثر. افعلي ما تشائين بإلحادك.
تدفقت الدموع من عينيّ، وبكيت بشدة، وقلت له برجاء:

أعطني فرصة لمدة شهر. إن لم أقتنع وأؤمن بالله، سأبتعد عنك كما تريد.

لكن جفاؤه كان قاسيًا:
هذه حياتك، أنتِ حرة في اختيارك. وللعلم، كنت أشك في إيمانك منذ البداية، لأن الدين يتطلب الالتزام بالحجاب والصلاة والصيام، ولم تقومي بأي من ذلك.
تساقطت دموعي أكثر وأنا أقول:
أنت لا تحبني. لو كنت تحبني، لبقيت معي.
فزفر جورج بحنق شديد:
كيف أطمئن إليك وأنت بلا دين وبلا منهاج؟ من يحكم تصرفاتك ويضمن عدم خيانتك لي؟ الملحدون كائنات بلا عقل ولا ضمير.
لم أستطع التوقف عن البكاء، وترك جورج المكان، متجهًا إلى بيت جده القديم، وأخبرني أنه سيقيم هناك شهرًا كاملًا، وخلال هذا الشهر يجب أن أحدد ماذا أريد: هل أعتنق الإسلام من قلبي أم أختار الإلحاد وأدمر حياتي كما يزعم.

في اليوم التالي، أخبرتني هيلين عبر الهاتف بأنها اتصلت بأم زكريا وحكت لها ما حدث، فقالت لها أم زكريا:

لم أستطع الصمت يا هيلين، فهو محرم عليكِ في ديننا، والساكت عن الحق شيطان أخرس. سنتحاور معكِ، وإن شاء الله ستصلين إلى بر الأمان قريبًا. أبشري بكل خير، فنحن والله لا نريد لك إلا الخير.

بعد انتهاء الاتصال، ارتديت ملابسي وتوجهت إلى هيلين لأتحدث معها. لم أستطع إلا أن ألاحظ التغير الكبير الذي طرأ عليها، فقد بدت امرأة مختلفة تمامًا، ملامحها متجهمة وحزينة. تحدثنا قليلًا، واتفقنا على أن نتناقش جميعًا: أنا، وهي، وأم زكريا، ويوسف، وزكريا "جورج"، على مجموعتي "المسيح يناديك"، حتى يراها كل ملحد علّه يؤمن بالله.

حددنا الموعد ليكون يوميًا بعد الساعة العاشرة مساءً. وعندما جاء الموعد، بدأ الحوار بسؤال طرحه يوسف، المتخصص في الإلحاد: دعوني أقنع هيلين أولًا بمنطقية الإسلام.

كان السؤال الأول الذي بدأ به هو:

أيهما منطقي أكثر: الإسلام أم الإلحاد؟

بدأ يوسف في سرد المعلومات والإجابة بهدوء، فتحدث قرابة نصف الساعة حتى قالت أم زكريا:

لو استخدمنا قدراتنا المنطقية، فسوف نتوصل حتمًا إلى أن الإسلام منطقي أكثر.

فسأل زكريا:

لماذا يعتقد الملحد أن الكون بلا صانع، مع أنه يستخدم كل شيء مصنوع وله صانع؟ يا له من غباء!

ضحكت أنا ويوسف خلف الشاشة، ثم قال يوسف:

دعني أكمل، وأرجو من الجميع عدم مقاطعتي تمامًا.

فكتبت أم زكريا:

أُفضل أن نتواصل عبر برنامج زووم. ثم أرسلت لينك التواصل لمن يريد الانضمام.

عبر المحادثة الجماعية الجديدة، أصبح بإمكان يوسف أن يكمل حواره صوتيًا وليس عن طريق الكتابة، فقال:

كلنا، أو معظمنا، خطر بباله السؤال نفسه: لماذا وجد الكون؟ ولماذا هناك شيء بدلًا من لا شيء؟ في التاريخ الإسلامي، وفي بدايات القرن الثامن، كانت هناك فلسفة الطبيعة المعروفة باسم

"الدهرية"، والذين كان لهم وجهات نظر مشابهة. ما تضمنته هذه الأفكار هو أن الكون أزلي، وإذا كان الكون أزليًا، فهذا يدل ضمنيًا على أن ما فيه أيضًا أزلي.

لكن السؤال هو: هل يمكن أن يكون هناك ماضٍ بلا بداية؟ مع أن اللانهاية لها معنى في العالم الحقيقي، ومن غير المنطقي أبدًا. إن تأكيد فكرة أن الكون لا بداية له يعني أن اللانهاية القابلة للقياس غير موجودة في العالم الحقيقي، وهذا ما أشار إليه دكتور كراوس في الصفحة ٧١ من كتابه "الكون من لا شيء"، حيث وضح أن طاقة الفراغ أو أي شيء آخر من هذا القبيل فيزيائيًا لا يمكن أن تكون لا نهائية.

لذا، يجب علينا أن نجد طريقة حسابية مناسبة للحصول على جواب محدد. سأوضح لكم لماذا اللانهاية أو اللامنتهية لا يمكن أن تكون موجودة. تخيلوا، على سبيل المثال، أن هنا عددًا لا نهائيًا من الأعضاء في هذا الجروب، وأبعدنا منهم ٥، فكم يتبقى لدينا؟

قد يقول عضو مختص في الرياضيات موجود معنا إن الذي تبقى عدد لا نهائي من الأعضاء. وقد يقول آخر متخصص في المنطق: لدينا لا نهاية ناقص ٥. لكن ما الذي يمنعني علميًا من إزالة ٥

أعضاء من الجروب؟ لا شيء. وإن فعلت ذلك، يجب أن يتبقى ما هو أقل من اللانهاية، لكن هذا غير موجود، وهذا يؤدي بنا إلى التناقض والسخافة.

كان يوسف يتحدث بعمق عن مفاهيم معقدة، بينما كانت ملك في الغرفة المجاورة. تابع حديثه قائلًا:

يمكننا أن نتخيل المسافة بيني وبين ملك في الغرفة الأخرى، تلك المسافة التي يمكن تقسيمها إلى عدد لا نهائي من الأجزاء، لكنني أستطيع أن أتنقل ذهابًا وإيابًا في تلك الفضاءات. كما قال الفيلسوف اليوناني أرسطو: "المطلق ممكن وجوده، لكن لا يمكن ملاحظته في الواقع." في هذا السياق، أوضح عالما الرياضيات كازنر ونيومان أن اللانهائية ليست موجودة بالطريقة التي نقول بها إنه يوجد سمك في البحر، مما يتيح لنا الوصول إلى البرهان الاستنتاجي.

بينما كنت أستمع ليوسف من مطبخي، حيث كنت أحضر له قهوة بالحليب ولنفسي مشروب السحلب المنعش مع القرفة والمكسرات، قمت برفع صوتي من بعيد قائلة:

"ما معنى البرهان الاستنتاجي يا يوسف؟"

رد يوسف محاولًا تلطيف الأجواء، قائلًا:

"أعتذر عن الصوت المزعج من بيتي، فملك تتحدث من المطبخ وتسأل عن البرهان الاستنتاجي."

لحظة، ارتفعت حماستي للإجابة، فخرجت من المطبخ، وضعت القهوة أمام زوجي، وقلت بحماس:

"أكمل، نحن جميعًا آذان مصغية."

ابتسم يوسف ثم قال:

"البرهان الاستنتاجي هو النتيجة التي تلي بالضرورة المقدمة المطروحة، ونقض البرهان الاستنتاجي هو مماثل لنقض الحقيقة. لذا استمعوا جيدًا."

ثم بدأ يوضح:

"أولًا: لا يمكن أن توجد نهاية فعلية.

ثانيًا: عدد لا متناهٍ من الأحداث التاريخية ليس نهاية فعلية، لذلك لا يمكن وجود عدد لا متناهٍ من الأحداث التاريخية. إذن، فالكون ليس نهائيًا، وبالتالي للكون بداية، وهذا كان برهانًا استنتاجيًا."

فجأة، تدخل إدوارد، صديق زكريا من قبل إسلامه، مقاطعًا يوسف بسؤال فضولي:

"وماذا قال علماء الفلك المختصون في المجرات؟"

أجاب يوسف بوضوح:

"البروفيسور كراوس يؤكد بداية الكون في كتابه المثير للاهتمام. وفي الفكر الإسلامي، نوقش هذا الأمر لفترة طويلة، وأجمعت الآراء على أن الكون ليس أزليًا وأنه بدأ في نقطة محددة. وشيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، كتب في القرن الرابع عشر في كتابه 'الصفدية': 'كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، ولا أزلي إلا الله.'"

واصل يوسف حديثه:

"وبما أننا أثبتنا أن الكون له بداية، فهناك أربعة تفسيرات منطقية لكيفية نشوء الكون:

الأول: نشأ الكون بواسطة اللاشيء.

الثاني: الكون أنشأ نفسه.

الثالث: خُلق من قبل مخلوق آخر.

الرابع: خُلق من شيء غير مخلوق."

أضاف بنبرة تفكر:

"دعونا نتناقش في هذه الأمور معًا، هل يمكن للكون أن يكون قد أُنشئ من اللاشيء قبل كل شيء؟ ماذا نعني باللاشيء؟ اللاشيء هو غياب الشيء، وفي هذه الحالة، غياب الكون."

سأل يوسف:

"لماذا يعد تعريفنا منطقيًا؟ لأننا استنتجنا منطقيًا أن الكون له بداية، وبالتالي، فإنه لم يكن موجودًا في فترة ما، وهذا لا يمكن إنكاره. وبناءً على تعريفنا، أعتقد أنه بإمكاننا استنتاج أن نشوء الكون عبر اللاشيء هو أمر مستحيل وغير منطقي. يمكنك على سبيل المثال تجربته رياضيًا؛ ما ناتج ٠ + ٠ + ٠؟ من المستحيل أن يكون الجواب ثلاثة بل صفر. لذا، لا يمكن أن يكون الكون قد أُنشئ من اللاشيء."

ثم انتقل إلى الخيار الثاني:

"هل خلق الكون نفسه؟ هذا يشير إلى أن الكون كان موجودًا وغير موجود في الوقت نفسه، وهو أمر مستحيل. هناك مثال بسيط يمكنك تخيله، اسأل نفسك: هل يمكن لأمك أن تلد نفسها؟ من الواضح أن الجواب هو لا."

أضاف يوسف بحزم:

"إذن، فإن خلق الذات أمر مستحيل. أما الخيار التالي، هل يمكن أن يكون مخلوقًا قد خلق الكون؟ أقول إن هذا التفسير غير منطقي وغير عقلاني؛ فالكون لا يمكن أن يكون نتيجة لكون آخر. تخيل، لو أن هذا الكون رقم واحد هو نتيجة للكون رقم اثنين، والكون رقم اثنين هو نتيجة للكون رقم ثلاثة، إلى اللانهاية. كيف سنحصل على كوننا هذا؟"

استمر يوسف في حديثه، قائلًا:

"لذا، لخص المفكر الإسلامي والفيلسوف جعفر إدريس هذه النقطة قائلًا: 'لن يكون هناك سلسلة من المسببات، بل سيكون هناك سلسلة من عدم الوجود.' ومع ذلك، الحقيقة هي أن هناك وجودًا حولنا، لذا فإن المسبب الأساسي لا يمكن أن يكون مسببًا دنيويًا. لذا، أقول إن الاحتمال الأخير بأن الكون قد خُلق من قبل كائن غير مخلوق هو التفسير الأكثر منطقية."

وذكر يوسف أيضًا، في ختام حديثه، الفيلسوف أبراهام فيرغيز، الذي قال في ملحقه لكتاب أنتون فلو: "هناك إله"، موضحًا:

"يشرح هذه النتيجة بطريقة سهلة وقوية، قائلًا: من الواضح الآن أن الملحدين والربوبيين يمكن أن يتفقوا على شيء واحد، وهو إن وُجد شيء، فلا بد أن هناك شيئًا كان موجودًا قبله. كيف يمكن لهذه الحقيقة الأزلية أن تتكون؟ الجواب هو: لا تتكون، لأنها كانت دائمًا موجودة."

****

«١١»

اختبر نفسك

اللّه أم الكون ؟

بعد انتهاء الاجتماع، اتفق الجميع على تحديد موعد آخر لاستكمال ما بدأوه. اجتمع الأصدقاء مجددًا في يوم آخر عبر مكالمة على تطبيق زوم، بعدما أرسل يوسف دعوة لمناقشة مسألة الوجود وخلق الكون. جلس يوسف أمام الشاشة، وعلى يمينه ملك، بينما ظهرت الشخصيات الأخرى في المجموعة على الشاشة، من بينهم أم زكريا، لوجي، وجورج، وأخيرًا هيلين، التي تعتبر نفسها ملحدة وتميل للأفكار العلمية البحتة.

يوسف: (مبتدئًا الكلام بلطف) أهلًا بالجميع. شكرًا لكم على قبول الدعوة. اليوم اخترت موضوعًا قد يكون معقدًا للبعض، لكنه يستحق النقاش، وأظن أننا يمكن أن نتعلم من هذا الحوار الكثير. موضوعنا اليوم هو: "هل للكون خالق؟" وأريد أن أسمع منكم أفكاركم.

هيلين: (بنبرة واثقة) حسنًا، سأكون صريحة يا يوسف، لست من محبي فكرة الخالق. بالنسبة لي، الكون ليس بحاجة لأي خالق. العلم وحده يمكنه أن يفسر أصل الكون، كما قال كراوس في كتابه "الكون من اللاشيء". الفضاء يمكنه أن يخلق جزيئات جديدة بشكل تلقائي، دون الحاجة لوجود خالق.

يوسف: (مبتسمًا) أفهم وجهة نظرك، ولكن دعيني أطرح عليكِ سؤالًا، هيلين: إذا كان الكون، أو "اللاشيء" كما يُطلق عليه كراوس، قد استطاع أن ينشئ شيئًا، فهل يمكن للعدم أن ينشئ شيئًا من نفسه دون أن يكون له مسبب؟

هيلين: (مترددة قليلًا) الحقيقة، كراوس يقول إن الكون يمكن أن يخلق نفسه من الطاقة الكامنة.

يوسف: (مبديًا اهتمامًا) نعم، ولكن هل حقًا نستطيع اعتبار الطاقة "لا شيء"؟ فالطاقة، وفقًا للفيزياء، تعتبر شيئًا قائمًا ولها وجود. ولا يمكن للعدم المطلق أن ينتج طاقة أو مادة.

هيلين: (بصوت أكثر حدة) لكن هذا هو جوهر فكرة الفيزياء الكمية! هناك أحداث عشوائية لا تملك سببًا واضحًا، كالنشاطات التي تحدث في الجسيمات دون الذرية. ألا تعتقد أن العلم يمكنه تقديم إجابة شاملة في المستقبل؟

يوسف: صحيح أن الفيزياء الكمية تبدو معقدة ومحيرة أحيانًا، لكن حتى العلماء الذين يتخصصون فيها، مثل ستيفن هوكينغ، لم يجدوا جوابًا كاملًا لها. وما زال هناك حاجز بين ما نستطيع تفسيره وبين السؤال الأهم: كيف بدأت كل هذه القوانين الفيزيائية لتعمل بنظام ثابت ومتناسق؟

هيلين: (محاولةً الدفاع) ولكن الكون قد يكون نتيجة صدفة محضة.

يوسف: (بنبرة هادئة ومتفهمة) دعينا نفكر في هذا بشكل منطقي. لو دخلنا إلى غرفة ووجدنا فيها مكتبة ضخمة مرتبة بشكل متناسق، هل سنقول إنها تشكلت بالصدفة؟ الكون أعقد بكثير، وقوانينه

أكثر دقة وتناغمًا. ألا تعتقدين أن هذا التصميم المدهش يشير إلى عقل مبدع؟

هيلين: (تظهر بعض الحيرة) لا أنكر أن الكون منظم، لكن هذا لا يثبت وجود خالق. ربما تكون هذه مجرد طبيعة الأشياء.

ملك: (مقاطعة بلطف) عذرًا يا هيلين، لكن ألا تظنين أن هذا التنظيم قد يكون علامة؟ كما قال القرآن: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق". إذا كان هناك خالق ذكي، فسيضع إشارات في الكون، أليس كذلك؟

هيلين: (مترددة) ربما... لكن كيف يمكن أن نثق بمصدر مثل النصوص الدينية؟

أم زكريا: (تدخل بخبرة) الأدلة لا تعتمد فقط على النصوص. التأمل في الكون، وفي المعجزات العلمية التي تتواجد في القرآن، مثل أطوار خلق الإنسان، يعطينا مؤشرات. العلم لم يكن لينتج مثل هذه الحقائق قبل ١٤٠٠ عام.

جورج: (مدعمًا الحوار) العلم والدين ليسا متضادين، بل قد يكملان بعضهما البعض، وأنا أؤمن بأن هناك بوجود خالقًا، هو من وضع هذا النظام المذهل.

هيلين: (بصوت متردد) ربما لم أكن منفتحة بشكل كافٍ للتفكير بهذه الطريقة. لكنني بحاجة للتعمق أكثر، و... أعترف أن لدي بعض الأسئلة الآن.

يوسف: (بابتسامة) هذا هو الهدف من هذا النقاش يا هيلين، ليس لإقناع أحد، ولكن لجعلنا نفكر بعمق. فالعقل أداة عظيمة منحنا الله إياها، ومن خلاله نستطيع أن نبحث ونكتشف.

امتدت المناظرة لساعات طويلة، حيث تركز النقاش على مواضيع عميقة حول وجود الخالق والدلائل العقلية والنقلية التي يمكن أن يستند إليها المؤمنون في إيمانهم. اختتم يوسف حديثه الأولي بلباقة، لتتولى أم زكريا دفة الحوار وتخاطب هيلين، ومن معها من الملحدين، بحجة قوية وعمق فلسفي.

أم زكريا: (بصوت ثابت وواضح) وصف العديد من العلماء، سواء من الشرق أو الغرب، النصوص القرآنية بأنها مهيبة وبليغة، فهي

لا تقتصر على عرض الحقائق، بل تخاطب أعماق الإنسان بأسئلة تثير تفكيره عن نفسه ووجوده. على سبيل المثال، في قوله تعالى: «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»، يطرح القرآن تساؤلًا عن الذات والوعي، لاكتشاف الحقيقة الفسيولوجية والنفسية للإنسان. كما تناول د. شبير أختر، أستاذ الفلسفة في كتابه "القرآن والعقل العلماني: فلسفة الإسلام"، فكرة أن التناغم اللامتناهي في الطبيعة، سواءً أكان من النواحي الفيزيائية أو الروحية، يشير إلى شفرة كونية عميقة تنتظر منا فك رموزها.

صمتت لحظة، لتلتقط أنفاسها، ثم تابعت بتركيز وثقة: "إذا نظرنا للأدلة المحيطة بنا، نجد أن الكون يرتكز على نظام وتناسق، حيث تتضافر جميع العناصر لتشكل لوحة فنية منظمة تشير إلى بُعدٍ خفي يتجاوز حدود الطبيعة. ولعل هذا ما يدعو القرآن إليه، حينما يطلب من البشر أن يأتوا بسورة من مثله، كما في قوله تعالى: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله». هذه الدعوة لم يتمكن أحد من قبولها حتى اليوم، على الرغم من المحاولات العديدة".

وهنا التفتت نحو ملك، التي تفاعلت معها بحماس لتضيف:

ملك: "صحيح، فهذا التحدي لا يقف عند حد المعجزات الطبيعية، بل يتجاوزها إلى المجال الأدبي كذلك. القرآن ليس مجرّد كتاب بلاغي، فهو يتفرد بأسلوب لا يمكننا تصنيفه ضمن أي من القوالب الأدبية التقليدية كالقصائد أو المقامات. لغته متجاوزة لجميع القواعد الأدبية المعروفة، بطريقة تتحدى أي محاولة تقليد".

أدرك مهاب، وهو أحد الأعضاء الذين انضموا مؤخرًا إلى النقاش، أن هذه النقطة تستحق تسليط الضوء من منظور تاريخي وعلمي، فقال:

مهاب: "بالضبط، أستاذة ملك. ففي القرن التاسع عشر، تحدث المستشرق البريطاني فورستر فيتز جيرالد أربوثنوت عن هذا الموضوع قائلًا: "كل المحاولات التي سعت لتقليد القرآن باءت بالفشل"، وهذا يعكس عظمة هذا النص وقدرته الفريدة".

حين هدأ الحوار، قرر يوسف العودة للنقاش وإضافة بعض التأملات الختامية.

يوسف: "ما ناقشناه هنا يشكل تحديًا فكريًا متكاملًا، فنحن أمام معجزات تتجاوز قوانين الطبيعة، وأمام تحدٍّ لغوي يفرض نفسه على العقل والمنطق. حتى من لا يجيد العربية يستطيع تمييز الفرق في قوة النص القرآني من خلال التحليل العقلي".

****

«١٢»

الشيعة وعقائدهم

بعدما انتهى الاجتماع على تطبيق "زوم" مع أم زكريا وهيلين، قال يوسف بابتسامة محببة لملك: "ما رأيك أن نتناول العشاء في الخارج؟"، فوافقت بسرور، وشعرت بأن شيئًا ممتعًا ينتظرنا. ثم خطر لي فجأة فكرة أخرى فقلت: "لماذا لا ندعو والدتك لتشاركنا العشاء؟ قد تستمتع بالتغيير قليلًا." أبدى يوسف موافقته بحماس، وارتديت ملابس أنيقة مناسبة للمساء واتجهت إلى الطابق الأول حيث كانت والدته تقرأ بهدوء.

تقدمت نحوها بابتسامة دافئة وقلت: "أمي، ما رأيك أن تنضمي إلينا الليلة في عشاء خارج المنزل؟" ابتسمت بامتنان وأجابت: "لم لا؟ سيكون من الممتع تغيير الأجواء قليلًا."

عندما كنا في الطريق، شعرت بالحنين إلى أسرتي، فأخرجت هاتفي واتصلت بمروان للاطمئنان عليه وعلى والديّ. سمعت صوت مروان متحمسًا، فأخبرني قائلًا: "لدينا خبر جديد اليوم... لقد انتقلنا إلى منزلنا الجديد أخيرًا!"

تملكتني الفرحة وقلت بدهشة ممزوجة بعاطفة عميقة: "كيف تخفي عني هذا الخبر؟! كنت أنا ويوسف سنساعد في النقل!" ضحك مروان، واعتذر بلطف: "نعلم أنكما منشغلان بالمناظرات ولم نرغب في أن نعطلكما، كما أن بعض الجيران ساعدونا بالفعل."

باركت له بحب وتمنت له السعادة في بيته الجديد، ثم ناولت الهاتف ليوسف الذي انشغل بالحديث مع مروان للحظات. ما لبث أن اقترح مروان بحماسة أن نزورهم ونكمل السهرة في منزلهم الجديد، واحتفالًا بهذه الخطوة الجديدة في حياتهم. تردد يوسف في البداية، لكن والدتي تدخلت بدعوتها للانضمام.

عندما وصلنا إلى منزل أبي الجديد، كانت الحديقة مزينة بأضواء صغيرة تنعكس على الشجيرات والأزهار المحيطة، مما أضفى أجواء ساحرة وملهمة. كانت والدتي ووالدة يوسف يتبادلان الأحاديث الودية، بينما كان يوسف وأبي يجهزان الشواء لصباح الغد. لحظات

كهذه تحمل في طياتها مشاعر من الدفء والألفة التي تملأ القلوب بالبهجة، وشعرتُ أن هذا الاحتفال الصغير في الحديقة قد جلب لنا جميعًا فرحةً لا توصف.

بينما كنت أستمتع بالأجواء، التفتُّ إلى يوسف بابتسامة مرحة، وقلت: "لماذا لا نقضي هنا يومين؟ سيكون ذلك ممتعًا." نظر إليّ بنظرة حانية وقال: "فكرة رائعة، لكن ربما والدتي تفضل العودة." بادرته بالقول: "سأتحدث معها وأرى ما إذا كانت تود المكوث." ذهبت نحو الصالون حيث كانت والدتي ووالدة يوسف تتجاذبان أطراف الحديث. اقتربت منهما بابتسامة خجولة وقلت: "أبي يرحب بنا أن نقضوا معهم يومين، كنوع من التغيير وكفرصة لنا لقضاء وقت أطول معهم." بادرت والدتي بالتشجيع، وقالت بحماسة: "أوه، سأكون أسعد إذا وافقتِ، سيكون لدينا المزيد من الأحاديث والمواقف التي لم نتبادلها بعد."

حين وافقت والدت يوسف، شعرت بسعادة غامرة، وبدأت أدور حول نفسي بمرح، حتى أنها ضحكت وقالت لي: "أنتِ كالفراشة في ربيعها." ضحكت، وشعرت أن هذه الليلة قد تحولت إلى واحدة من أجمل الليالي.

في منتصف الليل، وبعدما خلد الجميع للنوم، شعرت برغبة ملحة في أن أسترجع ذكريات حياتي في المنزل القديم، وتذكرت تفاصيل كثيرة: الحوارات التي كنت أخوضها مع العم نعيم، والكتب التي كنت أقرأها بشغف في المكتبة. قررت استغلال الوقت لأقرأ قليلًا، فذهبت إلى المكتبة، وبينما أبحث عن كتاب لتمضية الوقت، وجدت كتابًا بعنوان "المشروع الإيراني الصفوي الفارسي." استوقفني العنوان، وشعرت بأن الفضول يجرني لفتحه.

جلست على الأريكة تحت ضوء المصباح الدافئ، وبدأت في القراءة. كانت الصفحات تحمل بين سطورها أفكارًا تثير الدهشة؛ عقائد غريبة عن الشيعة الإمامية، لم أكن أتصور مدى تعقيدها وغرابتها. قرأت عن عقيدة البداء، التي تفترض أن الله قد يظهر له أمر جديد لم يكن يعلمه، فتذكرت المقولة التي تقول بأن الكليني يعتقد أن عبادة الله تكون كاملة فقط من خلال الإقرار بهذه العقيدة. وتابعت القراءة لأصل إلى عقيدة الرجعة، والتي تتحدث عن عودة المهدي ليقتل من ليسوا شيعة ويعاقب أعداءهم، أما عقيدة التقية فتعتبر لدى الشيعة أصلًا من أصول دينهم، ويعرفونها

بأنها إظهار غير ما يبطن الإنسان من معتقدات، وهي أمر يتبناه الشيعة كمبدأ للتعامل.

لم أتمكن من إنهاء الكتاب دون الشعور بثقل في صدري؛ ليس بسبب وزنه، بل بسبب الأفكار التي يحتويها. تقلبت الأفكار في رأسي؛ إذ كيف لهم أن ينسبوا الأئمة مقامًا أعلى من الأنبياء ويعتبرونهم يعلمون الغيب؟ وها هو الخميني نفسه يرفع من مقام الأئمة إلى مرتبة تُخَوّلهم التحكم بذرّات الكون. شعرت بالضيق الشديد وأنا أفكر في هذه المزاعم، وتساءلت في نفسي: "كيف يمكن لعقل أن يصدق كل هذا؟!"

انتهيت من القراءة وأغلقت الكتاب، وكنت أمتلك إحساسًا مزدوجًا من الدهشة والأسى. وضعته على الطاولة، وتوجهت إلى غرفتي مثقلة بالأفكار. نمت على سريري، وأغمضت عيني ببطء، فيما كانت الكلمات تتداخل في ذهني، تحاول الانسحاب إلى عالم الأحلام.

في صباح اليوم التالي، استيقظت على ضوء الشمس يتسلل برفق عبر النافذة. الجو في الحديقة كان مفعمًا بالنشاط، فقد انهمك يوسف ووالدي في تجهيز الشواء، بينما كانت والدتي ووالدة يوسف تحضران لنا الأطباق الجانبية. رائحة الطعام الشهي كانت تعبق في الأجواء، ممزوجة بأصوات الضحك والأحاديث الدافئة، وكأن هذا الصباح كان عودةً جديدة للحياة، يحمل معه طاقة إيجابية تبعث في النفس البهجة والسكينة.

جلست إلى الطاولة، بينما كان يوسف يضع قطع اللحم والدجاج على الشواية، وبدأنا نتناول الطعام بابتسامة عريضة تملأ وجوهنا. كأن هذا الصباح قد وُلد ليرسم ابتسامة جديدة، ويمحو آثار الثقل الذي خلفه الكتاب الليلة الماضية.

طالت جلستنا بعد الغداء، إذ سألني مروان عن الأنشطة التي قمت بها في اليوم السابق، وبعد أن استفسرت منه عن الكتب، أبلغته عن كتاب يتناول موضوع الشيعة. نظرت إليّ والدي وأعلن:

"يا الله، هذا الكتاب أهداه إليّ زميلي في العمل منذ زمن طويل، وله معي قصة مميزة."

شعرت بالفضول وقلت له:

"وما قصته، يا أبي؟"

ابتسم وقال:

"كان مدير عملي السابق شيعيًا، وصديقي كان يحاوره يوميًا. ورغم حواراتهما، لم يقتنع. كنت معجبًا بأسلوب صديقي في الحوار، لذا أهداني ذلك الكتاب الذي يحتوي على نبذة مختصرة عن الشيعة. ومنذ ذلك الحين، كنت أدون أسئلة صديقي اليومية أثناء تلك الحوارات."

طرحت سؤالًا:

"وأين هذه الأسئلة الآن، يا أبي؟"

أجاب:

"ابحثي بينها، ستجدين أجندة سوداء مليئة بالملاحظات عن كل ما جرى بينهما. لقد دوّنتها أثناء الحوار."

وبالفعل، انطلقت للبحث عنها حتى وجدتها. أحضرتها على الفور وجلست بجانب يوسف، نبحث معًا عن موضع الأسئلة. بدأنا نتصفح الأجندة ورقة ورقة حتى وصلنا إلى أسئلة مثيرة للاهتمام.

تهلل وجهي بالسعادة وقلت:

"وجدناها، يا أبي!"

رد والدي:

"اقرئي، يا ملك، لأتذكر ما كتبته."

فقلت للجميع:

"اسمعوا، يبدو أنها أسئلة مهمة.

السؤال الأول: لماذا ذكر الله في كتابه أركان الإسلام الخمسة (الشهادتين، الصلاة، الزكاة، الصوم، والحج)، وترك أعظم هذه الأركان عندكم، وهي ولاية علي وأبنائه، دون أدنى ذكر؟

السؤال الثاني: قال تعالى: (وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالا بَعِيدًا). فأين ولاية علي رضي الله عنه من هذه الآية؟ أوضحت الآية الكريمة أن المؤمن الحق يجب أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومن لم يؤمن بهذه الأمور فقد كفر، ولم تتضمن هذه الآية ولاية علي رضي الله عنه، أو ولاية أبنائه من قريب."

تابعت القراءة:

"السؤال الثالث: هل استشهد علي رضي الله عنه بأي آية أو حديث على إمامته أو إمامة أحد أبنائه؟ لم نجد نصًا عن علي رضي الله عنه استشهد فيه بنصوص الوحي على أنه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، أو على خلافة أو إمامة الحسن من بعده. إذًا، فالشيعة استدلوا بما لم يستدل به علي نفسه رضي الله عنه. السؤال الرابع: هل ورد نصّ عن علي رضي الله عنه قال فيه مثلًا: «أنا الخليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعوني»؟ لماذا لم يصرح القرآن بأسماء الأئمة الاثني عشر، مع أنه صرح بأسماء من هم أدنى منهم منزلة، وهم الأنبياء حسب مزاعم الشيعة؟ السؤال الخامس: أجمع علماء الشيعة على أن الأئمة الاثني عشر أفضل من أنبياء الله قاطبة إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك لم نجد أي آية في كتاب الله تعالى ذكرت اسم أي منهم، بما فيهم علي رضي الله عنه، مع أن القرآن مليء بأسماء الأنبياء عليهم السلام في مواضع كثيرة ومتفرقة."

واصلت القراءة، والأسئلة تتوالى:

"السؤال السادس والأهم: إذا كان الطبرسي أهم مرجع للشيعة وألَّف كتاب «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب»، كيف لم يستطع الأئمة الاثني عشر المعصومين الحفاظ على القرآن الكريم؟ وكيف يمكن تصديق الروايات المنقولة عن المعصومين، بينما الذي نقل الروايات غير معصوم؟ هل هو أصدق من الأئمة الاثني عشر؟

السؤال السابع: لماذا أثبت القرآن الكريم إمامة المهاجرين والأنصار ولم يثبت إمامة الأئمة الاثني عشر التي هي أصل من أصول الدين لديهم؟!

السؤال الثامن: يزعم الشيعة وجوب اتباع الأئمة الاثني عشر فقط بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لكن القرآن الكريم يخبرنا بخلاف ذلك. قال تعالى: (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا). ما المكاسب الشخصية التي استفادها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من اغتصاب الخلافة؟"

سألت بفضول:

"سؤال يطرح نفسه في أوساط الشيعة: ما المكاسب الشخصية التي تحققت لهذين الخليفتين من وراء خلافتهما؟ هل ورثاها لأولادهما؟ هل كنزا منها المال؟ هل استوليا منها على الأراضي والعقارات؟ لم يكن لهذين الخليفتين أي استفادة شخصية من وراء الخلافة، ولا لأبنائهما، فقد رفض عمر تولية ابنه عبد الله من بعده، ولم يضعه أيضًا ضمن الستة الذين كانت فيهم الشورى."

تابعت بحماس:

"السؤال التاسع: لماذا يحتفل الشيعة بمولد الإمام الحسين، ولم نجد لسيدنا الحسن ذكرًا في التقديس أو الترحم أو البكاء عليه، رغم أنه مات شهيدًا مثل سيدنا الحسين؟ أليس هو حفيد النبي صلى الله عليه وسلم وابن علي رضي الله عنه وابن السيدة البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها؟ السؤال العاشر: لماذا حصرت الشيعة الإمامة في أولاد الحسين دون أولاد الحسن رضي الله عنه؟"

أضفت بنبرة استفسار:

"هذه الأسئلة محيرة، ولا تجد فيها عند الشيعة جوابًا شافيًا يروي ظمأك. لماذا الإمامة في أولاد الحسين دون أولاد الحسن، مع أن

الحسن والحسين متساويان؟ هذا سؤال يشكك الشيعي في نفسه حين يشعر بالتمييز بين أبناء علي رضي الله عنه!"

واصلت القراءة بحماسة:

"السؤال الحادي عشر: هل أوصى علي رضي الله عنه بالخلافة لأحد أبنائه من بعده؟ لم يوصِ علي رضي الله عنه بالخلافة من بعده لأحد أبنائه، بل قال في وصيته، كما جاء نصها في كتاب «مروج الذهب» للمسعودي، وهو من خواصهم باعتراف علمائهم. دخل عليه الناس يسألونه، فقالوا: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن فقدناك، ولا نفقدك، أنبايع الحسن؟ قال: لا آمركم ولا أنهاكم، وأنتم أبصر."

ثم أكملت القراءة:

"السؤال الثاني عشر: هل بايع جموع الصحابة والناس علي بن أبي طالب على أنه الإمام المعصوم، أم بايعوه على أنه الخليفة الرابع بعد الخلفاء الثلاثة؟ هل ولاية علي رضي الله عنه مكتوبة في القرآن؟ ذكر محدثهم الكليني في «الكافي» عن أبي الحسن رضي الله عنه قال: «ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولم يبعث الله

نبيًا إلا بنبوة محمد، ووصية علي صلوات الله عليهما». لكننا لم نجد في القرآن إلا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم!"

بعد انتهاء من قراءة الأسئلة، انتقلت لكتابات أبي حول الشيعة، حيث ذكرت أن الشيعة لا يقبلون كل علماء السنة، ويرفضون كل كتب الصحاح والسنة، فلا البخاري ولا مسلم ولا الترمذي ولا النسائي، ولا أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو ابن حنبل، كذلك لا خالد بن الوليد ولا سعد بن أبي وقاص ولا عمر بن عبد العزيز ولا موسى بن نصير، ولا نور الدين محمود ولا صلاح الدين، ولا قطز ولا محمد الفاتح.

قال يوسف:

"إن مؤسس الشيعة اسمه عبدالله بن سبأ، وهو يهودي من اليمن، ادعى الإسلام في زمن خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقاد عقيدة منحرفة عن علي رضي الله عنه، حيث ادعى صفات ألوهية له وعظمه وقدسه. وهو أول من تكلم بسوء عن صحابة رسول الله وأمهات المؤمنين... عليه من الله ما يستحق."

أكمل أبي ما بدأه يوسف قائلًا:

"هو مشعل الفتنة، كان يدعي حب علي بن أبي طالب، لكنه مدعٍ لألوهيته، وهو أول من نادى
بولاية علي بن أبي طالب لكي يفرق بين الصحابة بالفتنة، وهو أول من أظهر الطعن والشتم في الصحابة وخصوصًا أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهم .

فقلت:

- بذلك يكون مؤسس الشيعة يهودي كما أن مؤسس النصارى هو شاؤول اليهودي الحرامي الذي كان يسرق الكنائس ويعذب أتباع المسيح وحرف دينه "التوحيد" وقال عن المسيح ملعون وخروف وكان يكذب ليزداد مجد إلهه!

قالت أمي:

- اليهود على مر العصور أعداء الله والأنبياء!

«١٣»

إعجاز القرآن

بعد يوم طويل، عدنا إلى منزلنا، حيث استمتعنا بزيارة حماتي العزيزة التي قضت وقتًا مفعمًا بالحب والود مع والدتي. وقد أبدت إعجابها بأسرتنا، قائلة ليوسف بفخر:

"ونعم النسب يا بني."

عند دخولنا إلى مجموعة "المسيح يناديك" على وسائل التواصل الاجتماعي، وجدت الحوار مشتعلًا بين الأعضاء، حيث كان النقاش يدور حول هيلين وبعض الملحدين، وفي خضم هذا الجدال، ظهرت أم زكريا، معتادة على تقديم تعليقاتها المميزة، لترد على تساؤلات الملحدين الذين استفسروا عن الإعجاز في القرآن الكريم.

بسرعة، كتبت أم زكريا اقتراحًا جديدًا:

"هناك كتاب تحدى كل العصور والأزمات، يتألف من ستمائة صفحة تقريبًا، يحتوي على علوم وآيات مذهلة مثل علم التجويد، القراءات، أسباب النزول، وعلم المحكم والمتشابه."

ولم يكن أمام هيلين إلا أن تسخر قائلة:

"فعلًا كتابك معجزة يا أستاذة!"

لكن أم زكريا، التي تجاهلت سخريتها، أكملت:

"ليس هذا هو السبب الوحيد الذي يجعله معجزة، يا هيلين. إنه معجزة لأنه ذكر مراحل تكوين الجنين، وتحدث عن الاتساع الكوني والفراغ في السماء، وكذلك الطبقات الموجية في أعماق البحار، وحركة دوران الشمس والنجوم. الكتاب هذا قد تحدى بلغاء العرب، إذ جمع بين الإجمال والبيان، مما أتى بالاقتناع للعامة والخاصة."

تابعت حديثها بشغف:

"إنه كتاب بليغ، فصيح وسهل، يجمع بين الفصاحة والعذوبة. يقول: (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين). كيف لا يكون معجزة، وهو الذي جعل كافرًا من الكافرين يذهب ليقتل النبي ﷺ، لكن بمجرد سماعه آيات بسيطة جعله يتراجع ويصبح صحابيًا مبشرًا بالجنة."

ثم تابعت:

"إن هذا الكتاب قد تحدى أهل الكتاب، وصحح قصصًا في كتبهم مثل قصة عزير واسم الملك في قصة سيدنا يوسف. لا يوجد حقيقة علمية واحدة تخالف القرآن."

أضافت أم زكريا:

"إنه كتاب دفع عظماء الشعراء للتخلي عن الشعر، وكفى بقراءة القرآن. وما يثير الإعجاب هو أنه ظل أكثر من ألف وأربعمائة سنة لم يُنقص منه حرف واحد. إنه معجزة في الترابط بين كل سورة، وقد نظم حياة الأفراد وسلوكهم على أسس صحيحة من الإيمان بالله والرحمة والعدل."

وأوضحت:

"البشرية كلها تغيّرت بعد القرآن. إنه كتاب شامل لكل قوانين الحياة، من قانون الأسرة والأحوال الشخصية، إلى قانون التجارة والمرافعات. يعالج كل القضايا المصيرية، ويرسخ الأخلاق مثل العدل والوفاء بالعهد."

واصلت أم زكريا سردها، فتحدثت عن الإعجاز الغيبي الذي يتضمن خلق آدم، وموضوع الجنة والنار، والملائكة والشياطين. ثم أضافت: "وإعجاز القرآن يمتد أيضًا ليشمل العبادات، مثل الصلاة والصوم، ويحث على التعليم والتفكر، حيث قال: (وقل ربي زدني علمًا)."

استمرت في حديثها:

"هذا الكتاب يحفظ كرامة الإنسان، حيث يقول: (ولقد كرمنا بني آدم)، ويشجع على التفاؤل ويحث على إدارة النفس."

عند هذه النقطة، شعرت بالحماسة وتفاعلت، فكتبت:

"خلاصة القول، هو الكتاب المقدس الوحيد على وجه الأرض، ولا يوجد مقدس غيره، بل هو القرآن الكريم العظيم."

ثم أضافت هيلين تعليقًا جديدًا، مبدية شكوكها:

"كل هذا كلام جميل، ولكن لماذا لا يكون للقرآن معجزة حسية يمكن أن يراها الجميع ويؤمنوا بها؟"

ردت أم زكريا برزانة:

"لأن المعجزات الحسية خاصة بأناس محددين. جعل الله عز وجل المعجزة الخالدة كتابًا يخاطب الروح والعقل."

ثم سألت هيلين باستفسار:

"ولماذا لا يكون محمد صلى الله عليه وسلم هو كاتب القرآن؟"

تقدمت أم زكريا، مدهوشة من السؤال:

"كيف يكون هو كاتب القرآن وهو الذي دعا على نفسه، قائلًا: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا)؟ الكتاب نفسه يتكرر فيه ذكر الله ٢٦٩٩ مرة، فلماذا سيربطنا سيدنا محمد بالله إذا كان هو مؤلف القرآن؟"

أشارت إلى آية أخرى:

"قال الله في القرآن: سنريهم آياتنا في الآفاق."

وبعد هذه الحوارات المثيرة، لم أتمالك نفسي، فكتبت:

"وإني أتعجب، يا أم زكريا، من أولئك الذين يدّعون أن القرآن يحتوي على أخطاء لغوية، رغم أن النحو مستمد من القرآن نفسه!"

فرد يوسف بصوتٍ عالٍ، مفعم بالحماسة:

"تحدث عن الكاتب الأمريكي جاك شاهين، الذي أنتج مائة فيلم لتشويه صورة الإسلام في هوليوود. لفت هذا العداء انتباه المفكرين، حتى قالوا له: 'أنت لا تستطيع سب الهولوكوست، لكن من المباح لك سب النبي محمد، نبي الإسلام!' ورغم أن كل علمائهم ومؤرخيهم أكدوا أن أكثر دين وقف بجانبهم ونصرهم وأعاد إليهم حقوقهم هو الإسلام."

تدخلت أم زكريا، قائلة:

"سبحان الله، لقد وصل العداء إلى درجة أن المسلم الذي يفكر في إرخاء لحيته ينظرون إليه وكأنه كائن غريب، والمسلمة المحجبة يسخرون منها وكأنها وباء، رغم أن الحجاب موجود في الكنيسة عندهم بين الراهبات. لن تجد راهبة غير محجبة!"

ثم تدخل أخي مروان في الحوار، مستحضرًا معرفته الواسعة، وكتب معلقًا:

"حتى أصول علومهم كلها ترجع إلى علماء المسلمين مثل عباس بن فرناس وابن خلدون والفارابي وابن سينا وابن رشد وجابر بن حيان والرازي والإدريسي وابن النفيس وابن حزم وابن الهيثم والطوسي والخوارزمي والبيروني وغيرهم."

ردت هيلين بنبرة استهجان:

"وهل تحتاج البشرية حقًا إلى نبوءات؟"

أجابت أم زكريا بتأكيد، مستندة إلى كلمات الله تعالى:

"قال الله: 'وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما نزل الله على بشر من شيء.'"

سألت هيلين باستفسار:

"أنا أقول إن موسى وإبراهيم ويوسف، على سبيل المثال، ليسوا أنبياء من عند الله. فما علاقة هذا بالآية التي ذكرتيها؟"

أجابت أم زكريا بحزم، موضحةً:

"بالطبع، لها علاقة وثيقة جدًا. الله يريد أن يقول للناس: إذا أنكرتم حاجة البشر إلى النبوءات، فما قدرتم الله حق قدره. هل من المعقول أن يتصور أحد أن الله خلق الخلق وعمر لهم الكون ثم تركهم دون هداية، دون أن يبعث لهم منهاجًا يسيرون عليه في هذه الحياة؟"

وتابعت، بصرامة:

"هذا هو معنى الآية. أنك لم تقدري الله حق قدره، أليس كذلك، يا هيلين؟"

«١٤»

معنى ملحد!

اجتمعنا بعد هذا الحوار الشيق والمفيد حول مائدة الطعام، حيث فتحت مع زوجي ووالدته موضوع هيلين وإلحادها. فجأة، فاجأتنا والدة يوسف بحكاية أخي جدها الذي كان ملحدًا لمدة عشر سنوات، وقد عاش في كندا. وعندما عاد إلى مصر، تعرف إلى صديق لجدي، وأقنعه بالعودة إلى الإسلام مرة أخرى. الفرق بينه وبين هيلين أنه كان مسلمًا قبل إلحاده.

نظرت إليها بدهشة مما أسمع، وقلت لها:

"معقول! أيوجد ملحدون من خلفية إسلامية؟ لم أكن أتخيل أن يترك مسلمون الإسلام قط."

ضحك يوسف حتى بدت نواجذه، فسألته بفضول:

"أمعقول هذا يا يوسف؟"

أجابني بلطف:

"يا حبيبتي، الملحدون موجودون من كل الأجناس والديانات. أتعلمين أن عدد الملحدين ذوي الخلفية الإسلامية قد ازداد في الآونة الأخيرة؟"

تملكني الفضول، فسألت والدة زوجي:

"من فضلك، احكي لنا عن أخي جدك."

قالت مسترسلة:

"عندما سافر أخو جدي إلى كندا، تأثر كثيرًا بالغربيين وطبيعة حياتهم. لم يكن متدينًا على أي حال، ولم يكن يعرف شيئًا عن دينه سوى القليل. لذا، كان تأثيرهم في عقله أسرع من البرق، وسرعان ما تحول إلى الإلحاد، وحارب الإسلام بتصريحاته عبر التلفاز لسنوات عدة، ثم عاد إلى مصر مرة أخرى."

أخبرها جدي قائلًا:

"سأعرفك إلى صديق لي، بعدها سيكون لك كامل الحرية في اختيار طريقك الذي تريده."

فوافق، وكانت تلك فاتحة خير عليه، حيث عاد إلى الإسلام بفضل الله ثم بفضل صديق جدي الذي جعله يتيقن أن الإسلام هو دين الله الأوحد على وجه الأرض بالحجة والبرهان.

قال يوسف:

"لهذا السبب وجهني أبي عليه رحمة الله لدراسة الإلحاد، كي يحميني وأحمي عائلتي من شر الوقوع في فخه."

وجهت كلامي ليوسف:

"سأسألك سؤالًا قد يبدو غبيًا، لكن حقًا لا أعلم له إجابة وأريدك أن تخبرني بها: ما الإلحاد؟ وما تقسيماته؟"

ضحك يوسف مجددًا، ثم أجابني بود:

"سؤالك ليس غبيًا، إنه سؤال مهم جدًا ويجب على الجميع معرفة إجابته. لقد قرأت معنى الإلحاد وتقسيماته في كتاب 'بصائر' للدكتور هيثم طلعت، وهو كتاب مفيد حقًا أنصحك بقراءته يا ملك."

هززت رأسي موافقة، فأكمل ما يقول:

"الإلحاد في اللغة يعني الميل. يُلحدون إلى الشيء يعني يميلون إليه. أما الإلحاد اصطلاحًا فهو إنكار الخالق والغيب والنبوات والبعث والحساب. فالملحد هو الذي يُنكِر وجود الغيبيات التي تقول بها الأديان."

ثم تابع، موضحًا تقسيمات الإلحاد:

"أما عن تقسيماته فهي التي تخص اللادينيين بصفة عامة، وهم:

١. الملحد

٢. الربوبي

٣. اللاأدري

٤. اللااكتِراثِي

كلهم لا دينيون. وهناك الشخص الهيوماني، وهو شخص يهتم بالإنسان فحسب، وقد يكون الهيوماني غير ملحد. تلك هي أشهر تقسيمات المذاهب الإلحادية المعاصرة."

سألتُه مستفسرة:

"متى وكيف بدأ الإلحاد؟"

أجاب يوسف موضحًا:

"لا توجد بداية محددة للإلحاد، وليس هناك إلحاد بمعناه الاصطلاحي المعاصر، والذي يعني إنكار الخالق، قبل القرن الثامن عشر الميلادي. ففي بداية هذا القرن ظهرت موجة لتأويل النصوص الدينية في أوروبا على يد دعاة التنوير والعلمانيين. وتأويل النص الديني تأويلًا فاسدًا يُخرجه عن معناه، ويعد هذا هو أخطر مدخل إلحادي، فانتشر الإلحاد في الغرب، حين فقد الناس الثقة بالنص الديني."

قلت برجاء:

"علمني يا يوسف كيف أرد على الملحدين، فأنا لا أفهم شيئًا عن هذا المجال."

فقال:

"عليك أولًا أن تفهمي دلائل وجود الله تعالى جيدًا."

فسألته:

"وما دلائل وجوده سبحانه وتعالى؟"

تنهدت والدة يوسف عندما تطرقنا إلى هذا الموضوع، وقالت:

"كان الله في عونكما. سأحضر لكما بعض الفاكهة، ثم أنتظركما في الشرفة حتى تنتهيا من النقاش."

ضحك يوسف قائلًا:

"إذن هيا يا ملك، لنخرج ونجلس مع أمي في الشرفة."

نظرت والدته إليه بابتسامة دافئة، ثم قالت بلهجة آمرة:

"يوسف، سأهاتف خالتك الآن، فلا تزعجني."

انصرفت إلى جانبٍ آخر، فابتسمت وقلت ليوسف:

"أتعلم؟ أستمتع كثيرًا بنبرة والدتك عندما تأمرك بأن تكون هادئًا أمامي. يبدو أن عليك الاستماع إلى كلام الكبار، اجلس هنا يا يوسف لا تضيع الوقت."

رد يوسف بتعليق ساخر:

"لن أجلس على الكرسي الذي أشرتِ إليه."

سألته باستغراب:

"ولماذا لا؟"

أجابني وهو يمزح:

"لأنكِ أصغر مني، وأنا لن أستمع إلا لكلام الكبار كما قلتِ، يا صغيرة."

قهقهنا معًا للحظات، ثم ذكّرته بجدية:

"هيا، أكمل حديثك، لا تضيع الوقت في الضحك. كنت تتحدث عن دلائل وجود الخالق."

فقال متابعًا:

"أجل يا حبيبتي، الدلائل كثيرة لا تُحصى. من يستطيع أن يُحصي خلق الله ونعمَه وما لا حصر له من براهين وجوده وكماله سبحانه وتعالى؟ فالقرآن الكريم حدّد لنا ثلاث مراتب أساسية من الأدلة الكبرى على وجود الخالق، بالإضافة إلى مراتب ثانوية أخرى عديدة."

سألته:

"وكيف نحتجُّ بالقرآن، يا يوسف، على ملحد لا يؤمن به؟"

أجابني بتفصيل:

"عندما نتحدث مع ملحد، نحن نقدم له الأدلة العقلية التي يطرحها القرآن الكريم في إثبات وجود الخالق. وهذه الأدلة تستوي حُجتها في نظر المؤمن بالقرآن وغير المؤمن به، لأنها أدلة عقلية! أما الأدلة الثلاثة الكبرى التي يقدمها القرآن الكريم فهي كالتالي:

الدليل الأول: دليل الإيجاد.

وفيه نقول إن كل شيء مُحدَث، أي: وُجد بعد أن لم يكن موجودًا. لذا، لا بد له من مُحدِث، أي: موجِد. والكون كله، بما فيه من مادّة وقوانين وأفلاك، مُحدَث بلا خلاف بين علماء الأرض. فالكون في الأساس وُجِد بعد أن لم يكن موجودًا.

الدليل الثاني: دليل الإتقان.

ومعناه أن كل شيء في الوجود يحمل درجة من التعقيد الوظيفي. بمعنى أنه يؤدّي وظيفة متخصصة ومهمة مُحدّدة، وهذا الإتقان يعد مرتبة زائدة على مجرد الوجود. فالوجود مرتبة، والتعقيد الوظيفي أو الإتقان مرتبة زائدة عليه. إذا نظرتِ حولك، يا ملك، ستجدين

أن كل شيء مُصمّم بشكل معين ليؤدي وظيفة محددة. على سبيل المثال، لو نظرتِ في أعمق أعماق الذرة، ستجدين أن الكوارك، وهو أصغر جُسيم رُصد على الإطلاق، مُصمَّم بشكل معيّن لأداء مهمة محددة."

استفسرتُ:

"يا يوسف، لقد رأيت سؤالًا لملحد يسأل: كيف بدأت الحياة؟ وكيف ظهرت الحياة؟ لكنني تخطيت هذا السؤال، اعتقادًا مني أن السائل غبي. هل كان يقصد شيئًا معينًا؟"

تنهد يوسف، ثم أجاب:

"قضية كيف بدأت الحياة هي قضية لا يمكن تفسيرها وفقًا للرؤية المادية. لكن قد يحتجُّ علينا ملحد ويقول: ألستم بهذا تستخدمون مغالطة إله الفجوات؟ كلما قصُر علمكم عن شيءٍ، قلتم: إذن، الله هو الذي أوجده! وهذا خطأ كبير، فنحن نحتجّ بما نعلم وليس بما نجهل."

نحتجُّ بالنظم المعلوماتية المعقدة الموجودة داخل كل كائن حي، فالمعلومة ليست مجرد مادة، بل هي نتاج خلق وصنع وعلم وقدرة وإحاطة. نتحدث عن نظام التشفير الرباعي الذي دُوِّنت من خلاله كل المعلومات التي يحتاج إليها الكائن بمنتهى الضبط قبل أن يظهر. تخيلوا، أربعة مليارات معلومة مُدوَّنة بنظام تشفيري داخل كل خلية من خلايا أجسادنا! إذًا، فإن البديهة العقلية تقول إنه لا بد لهذه المعلومات من موجِد، فكيف تتحوَّل هذه المعلومات المُشفرة إلى لحم ودم وأعضاء ووظائف غاية في الضبط إلا بوجود الله الواحد الأحد؟

هذه حجتنا، وهي احتجاج تقوده البديهة العقلية. الذي ينكر وجود مُوجِد ومؤدٍّ لهذه البديهة هو المطالب بتقديم الدليل، ولسنا نحن من يجب علينا إثبات شيء. نحن نحتجُّ أيضًا بأن كل علومنا وجامعاتنا أثبتت أن المركبات الكيميائية، مهما تعقَّدت، لن تُنتج حياة. فكيف يمكننا أن ننسب الحياة إلى بيئة الأرض الأولى، في حين أننا لم نستطع إيجادها بكل قدراتنا العلمية؟

كيف لعقولنا اللامعة وجامعاتنا العملاقة أن تتجاهل هذا، بينما يُصرُّ الملحد على أن الحياة نشأت بالمصادفة في بيئة الأرض العشوائية الأولى؟ مَن الذي يُجيب بالفجوات المعرفية، نحن أم الملحدون؟ الذي لا يعرف كيف نشأت الحياة، ولا كيف ظهرت نظم الكائنات الحية، ثم ينسب كل ما يجهله إلى الطبيعة الأكثر جهلًا، هو الذي يتبع الفراغات، ولسنا نحن! إنه يُسلم عقله لفجوات معرفية لا حصر لها.

يُسلم نفسه لفجوات ماضٍ ينسب له هذه المعجزات، وقد ينسبها لفجوات مستقبلية عندما يقول: "ربما في المستقبل سنعرف كيف حصلت هذه المعجزات". الملحد يعيش في عالم مليء بالفجوات المعرفية، بينما نحن، بصفتنا مؤمنين، نحتجُّ بما نعلم، ونستند إلى الحقائق والنتائج التي أفادها العقل بالنظر والبحث.

الملحد يُسلم نفسه للوهم والأمل والتخمينات البعيدة، لأنه يُرحل مشكلاته إلى أماكن أخرى. كما قال الله تعالى: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [سبأ: ٥٣]. هم

يضعون أي افتراضات مستقبلية تناقض ما تحت أيديهم، بينما المؤمن يُسلم بالبراهين والدلائل التي بين يديه.

إذن، الذي يُنكر إلزام التصميم والمعلوماتية المحيطة بنا في دلالتها على الخلق والإتقان هو المُطالب بتقديم الدليل، ولسنا نحن!

ثم تساءلتُ: - "يفترض الملاحدة أن نشأة الدين كانت عبر نظرة الإنسان البدائي في الكون، وخوفه من بعض الظواهر الكونية، فهل هذا صحيح؟"

أجابني يوسف: - "هذا خطأ واضح ومؤكد، وفيه ثلاثة إشكالات رئيسية. الأول: كيف يكون النظر في الكون أو الخوف من بعض ظواهره سببًا في إيقاظ الشعور الديني العميق عند جميع الأمم؟

الثاني: إن استمرار أي ظاهرة كونية على نسق واحد يجعلها أمرًا مألوفًا، لا يلفت النظر، ولا يحتاج إلى تعليل، وبالتالي لن تكون دافعًا لأي ردَّة فعل ميتافيزيقية. الثالث: لم يكن باعث نشأة الدين هو الخوف البدائي إطلاقًا، بل كان روح العظمة والقوة والاستعلاء.

فلو كان مبعث الدين هو المشاهد الكونية، وكان هدف الطقوس هو استرحام الطبيعة، لما استمر الناس على التدين بعد أن ثبت أن تلك المحاولات كانت عابثة، فالظواهر الكونية تتكرر بنفس الوتيرة والأطراد!

شعرتُ براحة كبيرة بعدما استوعبت ما شرحه لي يوسف، وابتسمتُ له ابتسامة مشرقة ملأت محياي، قائلة: - "سلمتَ لي، يا زوجي الحبيب. هيا لنجلس مع أمك، فهي قد تقيم علينا الحد إن لم ننهِ هذا الحوار الآن."

سمعت والدته من بعيد تقول: - "ابقيا حيث أنتما، فأنا ما زلت أتحدث مع خالتكما في أمر مهم."

قال يوسف مستطردًا: - "حسنًا، لديكِ فرصة اغتنميها الآن، وأنا ما زلت متحمسًا للحديث، واسألي ما شئتِ."

فسألته على الفور: - "كيف تحتج على ملحد ببشارات النبي صلى الله عليه وسلم في كتب السابقين؟"

فأجاب: - "إذا كانت هناك بشارة صحيحة بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتب السابقين المقدسة، فهذا دليل ثابت على صدقه، وهذا الدليل مُلزم للجميع. إذ كيف يُبشَّر بنبيٍّ قبل مجيئه في كتبٍ مقدسة لأمةٍ أخرى؟"

إذا صحت هذه البشارات والنبوءات، فإنها تمثل دليلًا واضحًا على أنه نبي حقيقي، ونُثبت أيضًا صدق الكتاب المقدس، مما يتعارض مع الرأي السائد حوله. والصواب أن الكتاب ليس مقدسًا بالكامل، كما أنه ليس محرفًا كليًا، إذ إن مرجعية الحكم في النبوءة تعود إلى معيار صدق الكتاب نفسه. وهذا الاستدلال يعد دليلًا على صحة الإسلام من خارج إطاره.

ولو كانت هذه البشارات صحيحة، فهي أيضًا تبرهن على أن النبوة في أصلها حقيقة، وأن مفهومها سليم؛ لأن ما يُبشر به الأنبياء يتحقق كما هو. وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تؤكد صحة هذا الاستدلال، حيث تشير إلى ضرورة الاستدلال بالنبوءات لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة السابقة، وهو استدلال يُعتبر عقليًا ملزمًا.

قال ربنا سبحانه: "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ" [يونس: ٩٤]. فهنا يُوجَّه النبي محمد إلى سؤال أهل الكتاب، ليجد في معرفتهم دليلًا على نبوته وصدق الشرع الذي جاء به.

ويقول عز وجل: "وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الكِتَابِ" [الرعد: ٤٣]. إن الذين يمتلكون علم الكتاب يعرفون النبي محمد معرفةً تامة، بل معرفةً يقينيةً، وذلك لكثرة البشارات التي وردت بشأنه.

كما جاء في قوله تعالى: "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" [البقرة: ١٤٦]. وأيضًا: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ" [الأعراف: ١٥٧]. لذا، فإن استخدام باب البشارات في الاستدلال على صحة الإسلام، وعلى صدق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، هو استخدام لباب عظيم لطالما تغافلنا عنه، ولم نُعطِهِ حقَّه من وجهة نظري.

هذا الباب، باب البشارات، ملزمٌ للجميع كما قلت، وهو آية واضحة لمن يرغب في التأكد من نبوته. كما جاء في قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ" [الشعراء: ١٩٧]. إن معرفة علماء بني إسرائيل بمحمد صلى الله عليه وسلم هي آية دالة على أنه نبيٌ حق.

لكن، ماذا عن الملحد الذي يكفر بالكتب السابقة كما يكفر بالقرآن؟ ما الحل إذن في باب البشارات؟

في ختام يوم مليء بالمعلومات، قلت ليوسف: "إليك الآن آخر سؤال، فقد تعلمت بما فيه الكفاية". فرد قائلًا: "إذن اسألي".

سألتُه: "أخبرني، ما أكبر إعجاز علمي في القرآن الكريم؟" تنهد يوسف، ثم قال: "أكبر إعجاز علمي في القرآن الكريم، الذي يمكن أن نتحدث عنه بكل ثقة، هو أن هذا القرآن لم ينقل شيئًا من الخرافات التي كانت تملأ العالم في عصره! فعندما يظهر القرآن، ويعصَم من كل تلك الخرافات، ويعجز الملاحدة بكامل قوتهم عن الإتيان بآية واحدة صريحة تخالف قضية علمية مثبتة، فهذا برهان على ربانية هذا الكتاب".

ما إن انتهت كلمات يوسف حتى نادتنا والدته لنلتقي بها. بينما كنا نتسامر، قالت بصوت حزين: "أرأيتم ماذا يفعل اليهود في فلسطين؟". قلت مؤيدة: "نعم، المشاهد فظيعة من غزة، والصور تدمي القلب. المجازر والمذابح تُرتكب، فقد بلغ علو هؤلاء مبلغًا لا يحتمل. والأدهى أنهم يفعلون كل ذلك أمام أنظار العالم، من أوروبا التي تدعي التنوير والحداثة، إلى أمريكا التي تتشدق بالديمقراطية وحرية التعبير، بل وحتى أمام المسلمين الذين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي ويتجادلون حول مشروعية الاحتفال، وكأنهم لم يروا ما يحدث. والله، إن هذا الذل الذي وصلنا إليه مؤلم. والله، إن نبي الله سيتبرأ منهم يوم القيامة. لقد تجاوز صمت المسلمين وخذلانهم حدًا لا يطاق، وحسبنا الله ونعم الوكيل".

قال يوسف بألم يطابق ما يجول في قلوبنا: "فلسطين الآن هي أطهر بقعة في أرض الإسلام بعد البيت الحرام. الفلسطينيون اليوم بلغوا حالة الاصطفاء بكل معنى الكلمة؛ فقد اصطفاهم الله لأشرف قضية في أشرف مكان. رزقنا الله الشهادة كما رزقهم. نحن نتألم لهم

ونحزن، لكن ما يُخفف ألمنا هو أن الله اختارهم. طوبى لهم، فقد فازوا بحياة كريمة وموت كريم، بينما نحن حُرمنا من ذلك".

تجاوزت تلك الليلة بسلام، وكما هي عادتي، بينما ينام الجميع، أظل بعض الوقت أتصفح كتبي. وفي خضم ذلك، تذكرت كلام والدة يوسف عن أخي جدها. بحثت عن ملاحدة ذوي خلفية إسلامية، ووجدت فعلًا الكثير، لكنهم ولله الحمد سرعان ما يعودون مرة أخرى إلى الإسلام.

«١٥»

الناسوت واللاهوت

في صباح اليوم التالي، بينما كنت أتصفح جروب "المسيح يناديك" على فيسبوك، صادفت سؤالًا يستحق التوقف عنده آلاف المرات: "هل الألوهية شيء يُمكن أن يذهب ويعود بكل هذه السهولة؟ أم أنها حقيقة تشير إلى أن الخالق أحق بالعبادة لأن غيره ليس خالقًا بل مخلوقًا، ولم يخلق شيئًا؟"

في لحظة مثيرة من النقاش حول الإيمان والإعجاز العلمي في القرآن الكريم، أجابت أم زكريا. كان من الواضح أنني قد أثرت اهتمامها بسؤالي، فأجابت قائلة:

"لقد اختلط الأمر بين معنى الإيمان بالغيب وجحود العقل. ومن المعلوم أن ضد العقل هو الجنون. هل نحن في عالم الناسوت أم اللاهوت؟ إن المسيحيين يحاولون تبسيط المسألة كثيرًا، لأن تفكيرهم سطحي للغاية، وليس لديهم أجوبة غير تلك التي تم زرعها

في عقولهم. بالنسبة للعقلاء، فإن أول أصل في المسيحية الذي يريح العقول يتعلق بموضوع ألوهية المسيح، فهو يزيل الشكوك حولها."

تابعت أم زكريا حديثها بحماس:

"أكره الفلسفة، لكنني تعودت أن أضغط على نفسي كما يقولون في الأمثال، وأناقش الفلسفة المسيحية غير المعقولة. وسأقوم، إن شاء الله، بنقضها عقليًا ونقليًا. غالبًا ما تثقل النقاشات حول المسيح، وتأخذ هذا الطابع الغريب:

'المسيح يحيي لعازر...'، فيصيح النصارى: 'لاهوت!'

'المسيح يأكل ويشرب ويفعل لوازمه...'، فيصيح النصارى: 'ناسوت!'

'المسيح يشفي الأعمى...'، فيصرخون: 'لاهوت!'

'المسيح يصلي لله...'، يردون: 'ناسوت!'... وهكذا دواليك. هذا هو تفكيرهم."

ثم أسألهم:

"أين هي مقولة اللاهوت الذي لم يفارق الناسوت في عالمكم؟ بل، نُتهم نحن كمسلمين بقلة الأدب لمجرد تقديم حقائق مجردة، ونُتهم بالجهل لأننا نستدل بما يدل على إنسانية المسيح. لأننا نقول إنه

فعلًا إنسان، يردون بأن: 'هو إله إنسان' أو 'إنسان إله' أو 'إله متجسد'..."

استطردت قائلة:

"إذن، إذا نقضنا هذا الأصل، فإن نظرية تأليه المسيح تسقط تمامًا، وبالتالي تسقط المسيحية، ولا يبقى إلا نبي من عند الله، ما دام المسيح يأكل ويشرب ويفعل لوازم الأكل والشرب، وينام ويبكي ويصلي ويُعذب ويُهان ويموت... إذن فهو إنسان، أليس كذلك؟'

تدخل عضو مسيحي يُدعى مايكل

'نعم، إنه إنسان، ولكن لا تنسِ أنه إله في الوقت نفسه، فهو كان يحيي الموتى ويشفي الأعمى والأبرص والعاجز... فهو ناسوت إنساني ولاهوت إلهي متحدان.'"

توجهتُ بسؤالي:

"هل قال المسيح: 'أنا ناسوت ولاهوت؟'"

فرد مايكل:

"لا، لم يقل... ولماذا يحتاج إلى أن يقول إنه ناسوت ولاهوت؟ الأمر بسيط... لقد كان يأكل ويشرب، إذن هو ناسوت، وفي

الوقت نفسه هو لاهوت لفعله المعجزات. ببساطة، إنه لا يحتاج إلى أن يقول ذلك!"

أكملتُ:

"النقطة الأولى في حديثي هي: إن المسيح لم يقل 'أنا إله وإنسان'، وليس لديكم أي شواهد تدعم هذا.

أما النقطة الثانية: إنكم بنيتم نظرية بناءً على شواهد، وتلك النظرية يفترض أن تكون متفردة وخاصة للمسيح فقط، ولا تنطبق إلا عليه. ولكنها ليست كذلك.

فلماذا كل كلامكم هكذا: "ناسوت ولاهوت!! ناسوت يفعل الأشياء البشرية، ولاهوت يفعل المعجزات!"

بل، إن كل شخص يؤمن ببوذا أو كريشنا أو ميثرا أو أي متأله آخر، يمكنه أن يقول الشيء نفسه عندما يناقش عقليًا. ويمكنني تطبيق النظرية على موسى وإيليا وحزقيال ويوشع... ولن تستطيعوا نقدها، إذ إن النظرية خيالية وضعت لتفسير أمر شيء غير موجود أساسًا."

تدخلت ماريان في النقاش موجهة كلامها
لـ أم زكريا" قائلة:
"يا أم زكريا، يجب أن تضعي لنا تفسيرًا للمعجزات العظيمة التي فعلها المسيح... ما تفسيرها؟"
فأجابت أم زكريا:
"تفسيرها بسيط جدًا، أبسط مما تتخيلين. إنه فعلًا يفعل المعجزات، ليس لأنه لاهوت متجسد، بل لأنه نبي مؤيد من قِبل الله! فكل الأناجيل تبين بما لا يدع مجالًا للشك أن هناك الآب، وهو الإله الذي كان يعبده المسيح، ونحن نطالبكم بأن توحدوه وحده لا شريك له.
وهناك يسوع المسيح، هل تعرفون من هو؟ لن أقول أنا، فلندع بطرس يبشرنا ويعرفنا من هو المسيح. يقول: 'أيها الرجال الإسرائيليون، اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصري رجل قد برهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما أنتم أيضًا تعلمون.'"

ثم أضفت مؤكدة كلام أم زكريا:

"كلام بطرس في خطبته الشهيرة يشير إلى أن المسيح هو عبد الله، وذكر ذلك باللفظ. لو قال أي مسيحي هذا الكلام، لا تتهموه بالإسلام أو الهرطقة. وأنا أقول كما قال بطرس: إنه عبد الله، نبي، مؤيد من قِبل الله بقوات وعجائب!"

سألتُ أم زكريا:

"أو لو كان بطرس يعتقد بنظرية الناسوت واللاهوت، هل كان سيقول هذا الكلام؟"

فأجابت:

"أحسنتِ يا ملك، بالطبع لا! لأنه لو كان يعتقد بها، لقال: 'الله تجسد ونزل في جسد يسوع الناصري، والدليل الآيات والقوات والعجائب كما أنتم تعلمون.' أظن كلامي منطقي للغاية، ولن يجادل فيه إلا جاحد."

أضافت أم زكريا:

"المسيح ليس ناسوت ولاهوت متحدين، وإنما هو نبي من عند الله، حتى لو مررنا النظرية بالقبول للنقاش دون التطرق لإثباتها، فإنه ينبغي أن تنطبق النظرية على المسيح تمامًا".

قالت ماريان ماذا يعني هذا؟
قالت أم زكريا: الأمر ليس بالبساطة التي تظنيها يا ماريان . لدينا ناسوت بصفاته: الولادة، الرضاعة، الأكل، الشرب، النقص، الموت، النوم، التعب، المرض، الجهل... إلخ.
ولدينا لاهوت بصفاته المعروفة، وهي الخلو من العيب والنقص، وكل صفات الناسوت السابقة من النقص، العلم المطلق بما كان وما هو كائن وما سيكون، والقدرة المطلقة على كل شيء، والقيومية على خلقه، ومطلق الحياة وعدم الموت... إلخ."
واصلت أم زكريا حديثها، مشددة على أهمية هذه النقاط في الحوار المستمر.
"هل هناك من يختلف معي حول ما سبق؟ لا أظن ذلك!" ثم أضافت عندما لم تجد ردًا: "النقطة هنا أنك افترضت أن هناك اتحادًا حدث بين الناسوت واللاهوت، وهذا يتناقض تمامًا مع صفات كل منهما. كمثال، الماء والنار لا يجتمعان أبدًا في إناء واحد، ولله المثل الأعلى. فلا يمكن أن يكون الله الحي، الذي يتمتع بحياة أبدية، يموت. ولا يمكن أن يكون الله القدوس غير قدوس، ولا يمكن أن يكون قيومًا يساق، ولا أن يولد وهو مولود، ولا أن

الرازق الذي يرزق الناس يجوع. تلك تناقضات لا يقبلها العقل ولا المنطق، ولا يقرها أي عاقل. فمن أين لكم بتجميع الناسوت مع اللاهوت، وهذا يتعارض تمامًا مع صفاتهما؟"

ثم انتقلت إلى الحديث بجدل قوي، قائلة: "إنه يفترض أن يكون، بالإضافة إلى كون الناسوت مكتملًا بكل صفاته الناقصة، أنه ولد ورضع ونام وأكل وشرب وفعل لوازمهما، وتعب، وضُرب، وجُلد، وصلب، ومات. فمن المفترض أيضًا أن يكون اللاهوت مكتملًا في صفتين على الأقل، وهما القدرة المطلقة والعلم المطلق. وللأسف، ليس المسيح ذا قدرة مطلقة ولا علم مطلق. ولدي دلائلي التي تنسف أي ادعاء بغير ما قلت."

ثم سألت بحدة: "هل سيصمد هذا الاعتقاد المخترع أمام حقائق الكتاب المقدس؟ إليكم تلك الحقائق:

١. في مرقص ١١: ١٣، قال: 'فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئًا، فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا لأنه لم يكن وقت التين'. هنا نجد المسيح جائعًا، يأتي من بعيد لشجرة التين ظنًا منه أنه سيجد فيها تينًا، ولم يجد بها شيئًا لأنه لم يكن موسم التين. وباعتبار أن اللاهوت لم يفارق الناسوت لحظة

واحدة، فإنه من الكفر أن نقول إن المسيح هو الله، لأن الله عالم بكل شيء. ومن الغباء القول بأن المسيح يمتلك لاهوتًا بعد هذا النص، لأن كل فلاح بسيط يعلم موسم التين، فكيف بالمسيح، خالق التين، وفقًا للإيمان المسيحي؟

٢. وأما في مرقص ١٣: ٣٢، نجد: 'وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن إلا الأب'. هذا النص يدمر تمامًا خيالات ألوهية المسيح والناسوت المتحد باللاهوت، لأن لا أحد يعلم موعد القيامة إلا الله حسب الكتاب المقدس. بالإضافة إلى ذلك، يدمر هذا النص نظرية تساوي الأقانيم، فالمسيح، أبدًا، ودائمًا، سيظل عبد الله ورسوله، وهو نفسه لم يطلب لنفسه ولم يقل عن نفسه غير هذا.

إذن، فالمسيح كان صاحب قدرة محدودة وعلم محدود، وطالما أن هناك حدودًا للقدرة أو للعلم، فإنه ليس لاهوتًا أبدًا، لأنه لا توجد صفة واحدة للاهوت توجد في المسيح مطلقًا. وحتى لو كان العلم مطلقًا والقدرة مطلقة، وهما ليسا كذلك، فإنه يجب أن تكون ذاتية، أي أن المسيح يفعل هذا الفعل بقدرة ذاتية من نفسه. فهل كان المسيح يفعل المعجزات بقدرة ذاتية من نفسه؟ الإجابة

هي لا، لأنه لا يستطيع أن يفعل الأشياء العادية، كالأكل والشرب، بقدرة من نفسه، فكيف بالمعجزات، يا صديقتي؟"
تساءلت: "هل لديكِ دليل على ذلك، يا أم زكريا؟" فأجابت:
"نعم، لدي دليل قوي، حيث قال المسيح: 'أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا، كما أسمع أدين، ودينونتي عادلة'. بصيغة نكرة، يبين لنا أنه لا يقدر على فعل أي شيء من نفسه، بما في ذلك الأكل والشرب، فضلًا عن المعجزات. وهذا الكلام يؤيد نظريتنا نحن المسلمين بقوة حول المسيح وينسف أي ادعاء مسيحي. فالمسيح لديه علم، ولكنه علم محدود، والمسيح لديه قدرة، ولكن قدرة محدودة. ناهيك أن القدرة والعلم ليسا ذاتيين، بل مصدرهما الآب، الله سبحانه وتعالى."
أضافت معبرةً: "ملحوظة: لم أتمسك بصفات أخرى، كصفة الحياة وعدم الموت بجوار العلم والقدرة، لئلا يخرج بنا الموضوع إلى جدال حول الصلب والفداء، ولئلا يتشعب بنا الموضوع كثيرًا."
ثم قالت برجاء: "أرجو أن يكون كلامي مفهومًا، وأعتذر عن أي لبس. أكره الفلسفة، وأتمنى أن يفهمني من لا يحب الفلسفة، وليعذرني، لأن المسيحية هي فلسفة يونانية. وأنا أنقضها فقط

بعقلانية لتصل إلى كل عاقل، بيضاء نقية، مفندة من جميع جوانبها.

إن نظرية الناسوت واللاهوت ينبغي أن تكون:

١. ذكرها المسيح، أو على الأقل ذكرها أحد رسله، وهذا لم يحدث.

٢. يفترض أن تكون النظرية متفردة وخاصة للمسيح فقط، ولا تنطبق إلا عليه. أي أنه عندما تعارضت ألوهية المسيح عقليًا مع الآباء الأولين، وجدوا لهم مخرجًا من انتقادات العاقلين، بل من عقولهم نفسها، بأن قالوا إن المسيح ناسوت ولاهوت متحدان، ليفسروا الظواهر الإنسانية. ولكن هذا المخرج، مفترض، أنه لن يستطيع العبور منه إلا المسيح، ولكن للأسف، فالنظرية يمكن تطبيقها على كل صاحب معجزة، سواء كان نبيًا أو متنبيًا أو متألهًا. لذا، فإن مخرج الناسوت واللاهوت هو مهرب واسع لكل صاحب إله باطل.

٣. يفترض أن يكون هناك صفات لاهوت وصفات ناسوت، وصفات اللاهوت تتعارض تمامًا مع صفات الناسوت، تمامًا كالماء والنار، لا يجتمعان في إناء. وإذا افترضنا جدلًا أنه حدث اتحاد، فأقل ما ينبغي أن يكون هناك صفتين للاهوت في المسيح، ألا

وهما القدرة الكلية المطلقة والعلم الكلي المطلق، وليس العلم المحدود صفة للألوهية، وليست القدرة المحدودة، مهما بلغت، صفة للألوهية.

وفوق ذلك كله، يجب أن يتفق عليها من يؤيدهم الروح القدس! وانظر هنا أيضًا أولًا في أعمال الرسل ٢: ٣٨ حيث قال لهم بطرس: 'توبوا، وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطية الروح القدس'.

أيضًا، اسم يسوع وغفران الخطايا، مرتبط بقبول عطية الروح القدس. وهناك نصوص كثيرة جدًا ستذكر بعد قليل، ولكن المهم الآن أن يعيد النصارى التفكير في النص وتفسيره على ضوء الأفكار التي ذكرتها، لعل الأمور تتضح لهم.

ثانيًا: يوحنا قام بتعميد المسيح عليه السلام وكثير من اليهود، فما هي الصيغة التي استعملها؟ مع الأسف، لم يذكر كتبة الأناجيل هذه الصيغة المهمة، ولكن لن نبعد عن الحق إذا أكدنا أنها لم تكن ثلاثية الأبعاد أبدًا، وإلا لما قبلها اليهود. وقد قال يوحنا عن المسيح: 'وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني ليعمد بالماء، ذاك

قال لي: الذي ترى الروح نازلًا ومستقرًا عليه، فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس'.

فهل معنى هذه العبارة أن المسيح كان يعمد بالروح القدس؟ كلا، طبعًا لم يحدث ذلك قط. أم هل يعمدهم باسم الروح القدس والنار كما يقول متى في ٣: ١١: 'أنا أعمِّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلا أن أحمل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس والنار'.

ومن الواضح أن كلام يحيى عليه السلام لا ينطبق أبدًا على المسيح عليه السلام، لأن المسيح لم يعمد بالماء، بل تلاميذه هم الذين قاموا بالتعميد، ولكن دون ذكر الصيغة الواجب قولها في هذا الموقف، انظر يوحنا ٤: ٢. ومع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد، بل تلاميذه.

وإذا كان الكلام السابق له معنى مترابط، فإن كلمات يوحنا المعمدان تعني أن التعميد سوف يستمر بالماء حتى **رسول معين**، فيصبح التعميد عندئذٍ بالروح والنار. هذا هو المنطق الوحيد لتفسير النص في متى، والإصرار على استمرار الكنيسة في التعميد بالماء

حتى الآن أمر يحتاج إلى تفسير، وأؤكد هنا أن يوحنا كان يقصد الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ولكن هذا موضوع آخر.

نرجع لمرجوعنا، في قلب البرية، كان يوحنا المعمدان يقوم بعمله، معتمدًا على دعوته النبوية التي لا تكل ولا تمل. كان يكرز بمعمودية التوبة التي تمنح مغفرة الخطايا، وكانت كلمات صوته تعبر عن النداء إلى قلوب البشر، في محاولة لجعلهم يعودون إلى الحق. وخرج إليه من كل كورة اليهودية وأهل أورشليم، جميعهم مثقلين بخطاياهم، معترفين بها، وأقبلوا ليعتمدوا في نهر الأردن. كانت تلك المياه تتلألأ تحت أشعة الشمس، تحمل في أعماقها وعدًا بالغفران.

تتجلى هنا شهادة مرقص، حيث يبرز أن التعميد في نهر الأردن كان كافيًا لغفران الخطايا.

ومن ثم، نتسائل: ماذا عن حمل "خروف الله" الذي يُقال إنه يتحمل خطايا العالم؟ يبدو أن هناك تناقضًا في الرسالة. إذا كانت مياه نهر الأردن تحمل في طياتها قوة الشفاء، كما فعل النبي اليسع مع نعمان، فإن ذلك يجعل من الصعب فهم لماذا كان ينبغي سفك دماء الإله لأجل غفران الخطايا.

وعندما ننظر إلى أعمال الرسل، نجد نصًا يشير إلى أن التعميد كان يتم باسم يسوع، حيث جاء في الإصحاح ١٦:٨ أن الرسل صلوا لأجل المؤمنين لكي يقبلوا الروح القدس، ومع ذلك، كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. لكن الغريب أن اسم يسوع وحده لم يكن كافيًا، بل كان هناك حاجة لوضع الأيادي لكي يُقبل الروح القدس. وهنا يظهر الغموض الذي يدور حول هذا الطقس، حيث يطلب سيمون، أحد الشخصيات البارزة في هذه القضية، أن يتعلم هذه اللعبة الغامضة لتوزيع الروح القدس، مدفوعًا برغبة قوية.

تتوالى الأسئلة، هل يمكن استخراج أي قاعدة ثابتة من هذا الارتباك؟ فما إن نحاول الوصول إلى نتيجة، إلا ونجد نصًا آخر ينقض ما سبق. وهناك أمر آخر ينبغي التوقف عنده، وهو اللص الذي كان على يمين المسيح في حادثة الصلب. غُفرت له كل خطاياه، وأصبح من المبشرين بالجنة، دون أن يُعمد. فكيف يمكن للمسيح أن يقول ذلك، في حين أن أيًا من الحواريين أو التلاميذ، بما فيهم بولس، لم يكن على علم بهذه الصيغة؟

يظهر في أعمال الرسل في الإصحاح ٢:٣٨ أن بطرس قال: "توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا." وكذلك، في أعمال ٨:١٦، نجد أن الروح القدس لم يحل على أحد إلا بعد اعتمادهم باسم الرب يسوع.

وفي مرقص ١٦:١٥، نجد دعوة موجهة إلى التلاميذ بالذهاب إلى العالم أجمع، غير أن صيغة التثليث المزعومة غائبة عن هذه النصوص، مما يثير التساؤلات حول مدى دقتها. وبعد كل ذلك، يأتي الاعتراض بأن الجزء الأخير من إنجيل مرقص، الذي يتحدث عن التثليث، قد أضيف لاحقًا.

تظهر هذه النصوص المتباينة من الأساسيات التي تحدد الإيمان، مما يجعل النقاش حولها متشابكًا ومعقدًا.

هنا تدخل يوسف متسائلًا، عن السبب الذي يجعل بطرس، بعد صعود المسيح، يتجاهل الصيغة التي سمعها من المسيح نفسه، وكيف يتبع الحواريون تعاليم أخرى لأكثر من قرنين دون أن يتبعوا توجيه المسيح!!.

«١٦»

سِفر الجامعة

مع مرور الوقت، تتصاعد الأحداث، وينتهي النقاش. لكن تظل الأسئلة قائمة حول طبيعة التعميد وصيغته، وكيف تتباين النصوص بين إنجيل وآخر.

بعد أن أخذت أسبوع من الراحة بعد تلك المناظرات، عدت إلى قراءة الكتاب المقدس مجددًا، وكنت قد توقفت عند سفر الجامعة. هذا السفر، الذي يحمل عنوانًا غامضًا، لفت انتباهي بشكل خاص، فلماذا سمي بذلك؟

وجدت أن "الجامعة" في العبرية تعني "كوهيليث" والمشتقة من الفعل "qahal" بمعنى "يجتمع". بينما في الإنجليزية، يُعرف هذا السفر باسم "Ecclesiastes"، مأخوذًا عن الكلمة اليونانية "Ecclesia" التي تعني "مجتمع" أو "كنيسة".

ثم تساءلتُ في نفسي مجددًا:

من الذي كتب هذا السفر؟

ولأجد الإجابة، لجأتُ إلى أم زكريا، فأرسلتُ إليها رسالة تحمل سؤالي. لم أتوقع ردها، لكن المفاجأة جاءت سريعًا. كتبت لي:

إن الإيمان التقليدي ينسب هذا السفر إلى سيدنا سليمان، رغم أن السفر لم يذكر سيدنا سليمان قط.

شعرتُ بالدهشة واستفسرتُ:

قط؟! ومن أين جاءهم هذا الاعتقاد؟

ردت بسرعة:

لا نعرف أي ملك يُدعى الجامعة، وأغلب المفسرين يرون أن "الجامعة" لقب وليس اسمًا، لأنه لا يوجد ملك على أورشليم بهذا الاسم.

أثارت إجاباتها تلك المزيد من التساؤلات في عقلي، فاقترحتُ عليها أن نرتب لقاءً يجمعنا لمناقشة الموضوع معًا، كي أتمكن من الحصول على إجابات شافية.

وبالفعل، رتبنا لهذا اللقاء، وفي اليوم التالي، توجهت إليها. ما إن جلست بصحبتها حتى بادرتها قائلة:

هل حقًا يقول النصارى إن كاتب السفر هو سيدنا سليمان؟.

فقالت:

انظري إلى النص الذي يقول: "أنا ناجيت قلبي قائلًا ها أنا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قبلي على أورشليم، وقد رأى قلبي كثيرًا من الحكمة والمعرفة" (١:١٦).

قبل هذا النص، من المفترض أن قد توالى على ملك إسرائيل عدة ملوك، وهذه من المشكلات التي تواجه المفسرين، لأن داود يُعتبر أول ملك على أورشليم، وقد تبعه ملك أو اثنان كحد أقصى.

تابعت أم زكريا حديثها، مشيرة إلى مشكلة أخرى:

وهناك مشكلة ثانية تتعلق ببعض الفقرات التي تعطي انطباعًا بأن الكاتب ليس ملكًا على إسرائيل. على سبيل المثال، في الإصحاح الرابع، يُذكر: "ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجرى تحت الشمس: فهو ذا دموع المظلومين ولا مُعز لهم، ومن يد ظالميهم

قهر، أما هم فلا معز لهم. فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحياء الذين هم عائشون بعد" (١:٤-٢).

فلو كان هو الملك، لكان هو الذي يُعزيهم ويحميهم ويرد عنهم الظلم والقهر!

ومضت في حديثها حول السفر الغريب، قائلة:

الإصحاح الخامس ينص: "إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل في البلاد، فلا ترتع من الأمر، لأن فوق العالي عاليًا يلاحظ، والأعلى فوقهما. ومنفعة الأرض للكل. الملك مخدوم من الحقل" (٨:٥-٩).

هذا يُظهر أن المتحدث شخص عادي وليس ملكًا كما يظن النصارى، لأنه يقدم نصائح حول كيفية التعامل مع الملك. كيف يمكن أن يكون هو الملك نفسه؟

واصلت الاستشهاد بالنصوص:

وانظري أيضًا هنا ياملك إلى هذه النصوص في الإصحاح الثامن: "أنا أقول: احفظ أمر الملك، وذاك بسبب يمين الله. لا تعجل إلى الذهاب من وجهه. لا تقف في أمر شاق، لأنه يفعل كل ما شاء"

(٢:٨-٣). وفي الإصحاح العاشر، يُنصح: "لا تسب الملك ولا في فكرك، ولا تسب الغني في مضجعك، لأن طير السماء ينقل الصوت، وذو الجناح يخبر بالأمر" (٢٠:١٠).

كل هذه النصوص تعطي انطباعًا أن المتحدث حكيم، يقدم نصائح للناس حول كيفية التعامل مع الملك. والسِفر لا يذكر سيدنا سليمان بشكل صريح، ولا نعرف أي ملك يُدعى "الجامعة"، ولا نعلم إن كان هذا لقبًا أم اسمًا، وأغلب النصوص تؤكد أن المتحدث ليس ملكًا!

ثم أضافت:

هناك مشكلة أخرى في هذا السفر، أن البداية والنهاية مكتوبتان بضمير الغائب، بينما في الوسط مكتوب بضمير المتكلم، مما يدل على أن الذي دوّن هذه الأقوال عن الجامعة هو شخص آخر! أو ربما اشترك شخصان في كتابة سفر الجامعة. أحدهما يبقى مجهولًا، في حين يتحدث الآخر بضمير الغائب!

لو كان هذا السفر منسوبًا لسيدنا سليمان، لكان يُفترض أن يعود تاريخ كتابته إلى القرن العاشر قبل الميلاد، لكنه، مثل باقي الأسفار المنسوبة له، كُتب بعد حوالي ٦٠٠ سنة من وفاته.

وعن محتوى السفر، قالت:

سنجد أنه من أغرب أسفار الكتاب المقدس، لكثرة تكرار كلمة "باطل" (hebel)، التي تكررت سبعة وثلاثين مرة! كما أنه لا يوضح الهدف من حياتنا بشكل مباشر، مما يجعلك تشعر بالإلحاد من خلال قراءته! بمعنى آخر، يُشعرك بأن تعيش حياتك بشكل إلحادي، مادام كل شيء ينتهي بالموت والزوال، وأي شيء نهايته "باطل"!

عُدت إلى منزلي هادئة الروح، متأملة في عمق الأفكار التي طرحتها مع أم زكريا، بينما كنت غارقة في صفحات سفر الجامعة، شعرت بأنني أسير في عتمة فكرية تتشابك فيها الأفكار المتشائمة واللامعنى. جاءتني الفقرة الثالثة في الإصحاح الثاني، وكأنها نافذة أطل منها على فكر الكاتب الذي يعلل جسده بالخمر، بينما قلبه يلهج بالحكمة. رغم المفارقة الصارخة بين الأمرين، يبدو وكأنه يختبر كل شيء

ليكتشف الخير الذي يمكن أن يفعله الإنسان تحت الشمس خلال أيام حياته.

ثم وصلت إلى الفقرة العاشرة. هنا تغير الجو بالكامل. الكلمة الواحدة حملت ثقل العالم كله: "باطل". كأنه صوت يتردد في فراغ الوجود، يصرخ أن كل شيء عبث ولا قيمة له. يصف الكاتب حالته حينما عاش حياته بدون كبح شهواته. لم يمنع نفسه عن أي شيء اشتهته عيناه، ومع ذلك لم يجلب له كل ذلك الفرح شيئًا سوى الإحباط.

تابعت القراءة حتى وصلت إلى الإصحاح الثالث، حيث تعمقت الحيرة. الكاتب يقرر أن الإنسان ليس له مزية على البهيمة، فكلاهما يسير في مسار الموت ذاته. كلمات ثقيلة، تكاد تقلب فهم الحياة رأسًا على عقب. سطور متتالية تزرع الشك في قلب أي قارئ حول قيمة الوجود، وفلسفة الغاية. حينما قرأت قوله: "من يعلم روح بني البشر هل هي تصعد إلى فوق؟ وروح البهيمة هل هي تنزل إلى أسفل، إلى الأرض؟"، شعرت بالرجفة تسري في

جسدي. هل حقًا هذه الكلمات يمكن أن تصدر عن نبي حكيم مثل سليمان؟

أغلقت الكتاب، وكان سؤالي الكبير يتردد في ذهني: هل يعقل أن تكون هذه هي رؤية سيدنا سليمان عن الحياة؟ كيف يمكن لشخص ملهم بالحكمة أن يعيش حياته بهذا العبث والتشاؤم؟!

عندها تذكرت كلام أم زكريا عن حديث القس الكاثوليكي الدكتور "سهيل قاشا"، الذي كان له رأي آخر تمامًا. يقول إن هذا السفر ليس إلا نصًا دخيلًا، مزيفًا، منتحلًا من الأدب البابلي. بل وذهب إلى أبعد من ذلك، مؤكدًا أن معظم التوراة قد سُرقت من آداب الأمم العراقية القديمة. وصف كلامه كان حادًا وجريئًا، لكنني وجدت فيه بعض المنطق. كيف يمكن لنبي موحى إليه أن يسطر هذه الكلمات المتناقضة والمتشائمة؟ حتى حكماء التلمود أنفسهم كانوا متفقين على تناقضات هذا الكتاب، معتبرين إياه ملفقًا.

أغمضت عينيّ، متذكرة زيارتي لأم زكريا. كان اللقاء حافلًا بالنقاشات العميقة حول هذه النصوص، وكنت دومًا أخرج من عندها بفكر جديد وإدراك مختلف. في تلك الجلسة الأخيرة، تبادلنا

الآراء حول سفر الجامعة، وكيف أنه يعكس جانبًا ضائعًا من الفكر الإنساني الذي يبحث بلا جدوى عن معنى الحياة. قالت لي حينها: "هذه النصوص ليست سوى محاولات البشر لفهم ما وراء الوجود، لكن الفهم الحقيقي يأتي من الوحي الإلهي، لا من عقول البشر المحدودة".

وفي صباح اليوم التالي، بينما كنت أحتسي كوب القهوة الساخن، رن الهاتف. كانت أم زكريا على الطرف الآخر، صوتها مفعم بالحيوية، تكاد تلمس السعادة في كل حرف تنطق به. قالت لي بحماس: "ملك، أتعلمين؟ الأعداد في تزايد مستمر! أستشعر تلك السورة بقوة"، ثم بدأت تتلو سورة النصر بصوتها الهادئ العذب: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ...}. شعرت وأنا أستمع إليها وكأن السكينة قد نزلت عليّ مع كل آية تتلوها.

انتهت من التلاوة، ثم قالت بارتياح عميق: "يا ملك، أتمنى أن يتقبل الله كل جهودي في الكتابة والدعوة. لعلّ كتاباتي تكون أثرًا طيبًا يبقى من بعدي". كانت كلماتها تحمل رجاءً كبيرًا، وكانت تقولها بصوت مفعم بالأمل.

لم أستطع إلا أن أشاركها تلك المشاعر، فقلت لها بصدق: "وأنا أيضًا، يا أم زكريا، أتمنى لك ذلك من كل قلبي. لقد قدمتِ الكثير، وما زال الطريق أمامك مليئًا بالخيرات إن شاء الله".

بعد أن أنهت المكالمة، بقيت أفكر في كلامها. كيف يمكن لشخصية مثل أم زكريا أن تكون بهذا الصفاء والإصرار على ترك أثر طيب؟ كانت تملك إيمانًا قويًا بأن الله لن يضيع جهودها، وأن لكل عمل صالح جزاء. كانت حياتها دليلًا على أن الغاية من الحياة ليست في الدنيا ذاتها، بل في ما يُترك خلفنا من أثر وما نقدمه في سبيل الله. وهكذا، انتهت تلك اللحظة كما بدأت، بهدوء وروحانية، لكن شعورًا جديدًا قد تملكني. شعرت بأنني قد وصلت إلى قناعة عميقة، بأن البحث عن معنى الحياة لا يكون في متاعها الزائل، بل في العمل الصالح والنية الخالصة.

«١٧»

الإسلام

كان الليل قد أسدل ستائره على المدينة، ونشر الهدوء عباءته في كل أركان المنزل. جلست في زاوية هادئة من الصالة، بين يدي كوب من الشاي الدافئ، وعيناي معلقتان على شاشة الكمبيوتر التي أمامي. الضوء الخافت للشاشة كان يرسم ظلاله على وجهي وأنا أستعد لاجتماع خاص. الساعة تقترب من العاشرة مساءً، واللقاء سيجمعني بيوسف والأصدقاء عبر "زوم"، بدعوة كريمة من أم زكريا، حيث وعدت أن تفتح لنا بابًا على معاني الإسلام العظيمة.

أخذتُ نفسًا عميقًا، وبدأت بإعداد حاسوبي، فتحت الملفات، وراجعت الملاحظات التي أعددتها مسبقًا. إلى جانبي كان يوسف، غارقًا في صمته وهو يقرأ في كتاب جديد، يرفع عينيه بين

حين وآخر ليبادلني ابتسامة دافئة. قال برقة: "أشعر أن هذا اللقاء سيكون مميزًا، أم زكريا تملك دائمًا أسلوبًا يخطف القلوب بحكمتها وعمق معرفتها."

في الجانب الآخر، كان جورج، الذي أصبح يُعرف باسم زكريا بعد اعتناقه الإسلام، يجلس منتظرًا بسلام يغمر قلبه. وفي مكانٍ أخر كانت هيلين، زوجته التي لا تزال تقف عند مفترق الشك واليقين، وبقية الأعضاء.

رن جرس الاجتماع، وتوالت الوجوه على الشاشة واحدة تلو الأخرى. كان زكريا أول من ظهر بابتسامة عريضة، وقال بحماس: "السلام عليكم يا جماعة، ما شاء الله، سعيد جدًا أن أكون معكم الليلة."

تابعت هيلين بنظرات تحمل شيئًا من الفضول وحيرة عميقة. شعور غريب بات يزحف إلى قلبها، كأن هناك همسًا خفيًا يدعوها للاقتراب من هذا الطريق الجديد، لكنه يتوارى كلما حاولت أن تفهمه. تساءلت بصمت: ما الذي أضفى هذا السلام على زوجي؟

هل يُعقل أن دين الإسلام يستطيع أن ينسج في روح الإنسان هذا التغيير العميق؟

ردت ملك بابتسامة دافئة، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم تتابعت الوجوه على الشاشة. كانت عيون الجميع مشدودة إلى أم زكريا، التي كان الاجتماع من تنظيمها، وكلهم يتطلعون لمعرفة ما ستقوله.

ظهرت أم زكريا أخيرًا، بابتسامة هادئة ومعهودة، قالت بصوتٍ مليء بالود: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يسعدني أن ألتقي بكم جميعًا اليوم في هذا اللقاء.

اليوم، أريد أن أتحدث إليكم عن عظمة الإسلام، الذي جمعنا هنا لنتأمل في ما يحمله من علم وحكمة.

صمتت للحظة، ثم تابعت بنبرة مليئة باليقين: "الإسلام ليس مجرد شعائر نؤديها، بل هو منهاج حياة متكامل. هو دين العقل والعلم، دين الروح والمادة. يأخذ بيد الإنسان ليصل به إلى أعلى مراتب الحضارة دون أن يتخلى عن إنسانيته. هو دين لا يغني عن العقل أو القلب، بل يوازن بينهما بكل حكمة."

زكريا، الذي كان يستمع بكل جوارحه، أومأ موافقًا وقال بصوت متأثر: "هذا هو السبب الذي دفعني للإسلام. كنت أبحث عن الحقيقة، وكلما تعمقت في القراءة، اكتشفت أن الإسلام هو الدين الذي يوازن بين العقل والقلب."

هيلين، التي كانت تجلس في زاوية الشاشة، كانت تحدق في زوجها بنظرة مليئة بالفضول. لم يكن من السهل عليها أن تفهم التغير الكبير الذي طرأ عليه. كان أكثر هدوءًا وسلامًا، وأصبح أكثر حبًا واهتمامًا بها وبعائلته. وبالمحيطين به ومع ذلك، كان هناك شيء في قلبها لا يزال يتساءل، كيف لدين أن يحدث كل هذا التحول؟

قالت هيلين بحذر، وكأنها تبحث عن إجابة تريح شكوكها: "لكنني لا أفهم، كيف يمكن لدين أن يكون عقليًا وروحيًا في آن واحد؟ كيف يمكن للإسلام أن يوفق بين الاثنين؟"

ابتسمت أم زكريا بابتسامة هادئة وقالت: "هذا هو سحر الإسلام، يا هيلين. الإسلام يحترم العقل ويشجعه على البحث والتدبر. في القرآن الكريم، نجد أن الله يأمرنا دائمًا بالتفكر في الكون وفي أنفسنا. 'أفلا يتدبرون القرآن؟' هذا دعوة لنا جميعًا للتفكير العميق

في المعاني وفي العلم. الإسلام ليس دينًا يُفرض فيه شيء على أحد، بل هو دين يدعو إلى التأمل والفهم، ويترك لكل شخص حرية الاختيار."

يوسف، الذي كان يتابع الحديث باهتمام، أضاف: "ما أعجبني في الإسلام هو أنه لا يفرض على الإنسان شيء بالقوة، بل هو دين يعطي الإنسان كرامته وحقه في اتخاذ قراره بحرية."

أم زكريا أومأت برأسها موافقة وقالت: "بالضبط، الإسلام لا يفرض العقائد بالقوة، بل يحث على التأمل والفهم. الله يقول في القرآن: 'لا إكراه في الدين'، وهذه قاعدة عظيمة تؤكد أن الدخول في الإسلام هو اختيار حر ينبع من اقتناع القلب والعقل."

صمتت أم زكريا للحظات، ثم تابعت، وقد بدت كلماتها أكثر عمقًا وتأثيرًا: "أعلم أن هناك من يشكك في الإسلام في بعض الأحيان. يتساءلون: هل هو حقًا دين العقل والمنطق؟ وأقول لهم: نعم. يكفي أن تنظروا إلى القرآن الكريم، فهو معجزة لغوية وعلمية وعقلية. من كان يعرف قبل ١٤٠٠ سنة عن دورة الماء في الطبيعة، أو عن تطور الجنين في رحم الأم؟ الله يقول في القرآن: 'وجعلنا من الماء كل شيء حي'. هذه الحقائق العلمية التي اكتشفها العلماء في

عصرنا، كانت موجودة في القرآن الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم."

زكريا، وقد تجلى في قلبه الامتنان واليقين، قال: "هذه الآيات كانت المفتاح الذي فتح لي باب اليقين. حين قرأت عن توافق العلم الحديث مع القرآن، علمت أن هذا الدين لا يمكن أن يكون إلا من عند الله."

هيلين كانت تستمع بانتباه، لكنها لم تكن قد زالت تمامًا من شكوكها. تساءلت في نفسها: "ولكن ماذا عن حقوق المرأة؟ سمعت الكثير عن ظلم النساء في الإسلام، كيف يمكن أن يكون دين العدالة وهو يقيّد المرأة؟"

نظرت إليها أم زكريا بحنان وابتسامة مليئة بالحكمة، بدت واضحة من إبتسامة عيونها، وقالت: "هذا من أكثر المفاهيم الخاطئة التي أسيء فهمها. الإسلام هو الدين الذي أعطى المرأة حقوقها منذ أكثر من ألف عام، في وقت كانت فيه المرأة تُعتبر ملكية تُباع وتُشترى في كثير من الحضارات. الإسلام أكرم المرأة كأم وزوجة وابنة، وضمن لها حق التعليم والعمل والميراث. القرآن يقول: 'ولهن

مثل الذي عليهن بالمعروف'. وهذا يعني المساواة في الحقوق والواجبات."

كانت تلك الكلمات بمثابة رسالة صادقة، مشبعة بالفهم العميق والحكمة التي لا يمكن أن تُنكر.

ملك تدخلت قائلة: "أنا شخصيًا وجدت في الإسلام عدالة لم أجدها في أي فلسفة أو نظام آخر. الإسلام لا ينظر إلى جنس الإنسان بل إلى تقواه وعمله. كما قال الله تعالى: 'إن أكرمكم عند الله أتقاكم'. هذه هي العدالة الحقيقية التي لا تتبدل."

أم زكريا أكملت حديثها بنبرة واثقة: "الإسلام ليس فقط دين العقل والعلم، بل هو دين يملأ القلب بالسلام واليقين. كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي'. في القرآن الكريم والسنة نجد الهداية والنور الذي لا ينضب."

عظمة هذا الدين تكمن في قدرته على جمع أسمى القيم والمبادئ التي ترتقي بالإنسان. إنه دين لا يتوقف عند الشكل الظاهري، بل يهتم بما في القلب، مغرسًا فيه معاني الإنسانية السامية. الإسلام ليس مجرد طقوس دينية، بل هو نظام حياة متكامل يوازن بين الروح

والجسد، ويمنح الإنسان الطمأنينة والسكينة في عالم مليء بالتحديات. تحت ظله، يجد العلم والأدب ملاذهما، وتلتقي حاجات الروح بمطالب الجسد ليعيش الإنسان في تناغمٍ داخلي ينعكس على كل ما يحيط به من الخارج.

الإسلام يدعو إلى التقدم والعمران. إنه لا يرفض الدنيا بل يحث على طلب العلم، ويعتبره سعيًا نبيلًا، بل هو من أسمى العبادة في هذا الدين. في ظله، يتساوى الجميع، فلا فرق بين عرق وآخر أو لون وآخر، فكلنا أبناء آدم، نعيش في سعي مشترك نحو الفضيلة والعدل.

لقد أقر الفلاسفة وعلماء الغرب بعظمة الإسلام، فهو دين يتسم بالمرونة والبساطة، يثبت مبادئه من خلال التجربة الواقعية التي لا تضل الطريق. يرفع من قيمة الفطرة السليمة، والتي تشكل أساس التعاملات والأخلاق في المجتمع الإسلامي. وفيه، لا مكان للتفرقة أو التمييز، بل يعامل الجميع بإحسان ورحمة، ويحث على نشر المحبة والسلام بين البشر.

رغم أن الإسلام يرفع من قيمة العلم والمعرفة، إلا أنه لا يغفل احتياجات الجسد والنفس، بل يعترف بحق الإنسان في الراحة

والرفاهية. وفي الوقت نفسه، يزرع في قلب الإنسان القيم السامية والأخلاق النبيلة التي تقيم حياته على العدالة والتعاون بين الجميع.
الأسرة في الإسلام تشكل الأساس المتين للمجتمع، حيث يتحمل كل فرد فيها مسؤوليته بروح من التعاون والمحبة. الإسلام يعلي من شأن العدالة حتى في التعامل مع الأعداء، ويعلمنا كيفية التعامل مع الجميع بالحسنى والرحمة.
الإسلام هو الحضارة التي جمعت بين الروح والمادة، وصنعت منها تاريخًا حافلًا بحضارة شامخة تعلو بالقيم الإنسانية، وتقدم للبشرية منهجًا فريدًا يتسم بالعظمة والتوازن. في كل جوانب حياته، يعكس الإسلام فهمًا عميقًا للإنسانية ومعنى الحياة.

أبرز جوانب عظمة الإسلام تتجلى في:

١. التوازن بين الدنيا والآخرة: الإسلام لا يطلب من المؤمنين الانقطاع عن الحياة الدنيوية، بل يشجعهم على السعي والعمل الصالح، مع إعداد النفس للآخرة. كما جاء في قوله تعالى: "وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا" (القصص: ٧٧).

٢. حقوق الإنسان وكرامة الفرد: الإسلام كرّم الإنسان ومنحه حقوقًا أساسية تشمل الحق في الحياة والحرية والعدالة، ووضع قوانين تحمي حقوق الأفراد من الظلم.
٣. التشجيع على طلب العلم: العلم في الإسلام ليس مجرد معرفة، بل هو فريضة على كل مسلم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم."
٤. دور المرأة وحقوقها: الإسلام رفع من مكانة المرأة وأعطاها حقوقًا في التعليم والعمل والميراث والزواج، وجعلها شريكًا أساسيًا في بناء المجتمع.
٥. التكافل الاجتماعي: جعل الإسلام من التكافل الاجتماعي ركيزة أساسية لاستقرار المجتمع، ففرض الزكاة وأمر بالصدقات لضمان حياة كريمة لكل فرد.
٦. حث على الأخلاق الحميدة: الإسلام يهذب الأخلاق ويحث على الصدق والأمانة والعفاف، كما قال صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق."

٧. العدالة والمساواة: الإسلام يؤكد على العدالة والمساواة بين الناس، فقال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ" (النحل: ٩٠).

٨. حماية البيئة: الإسلام يحرص على احترام البيئة والمحافظة على مواردها، ويحذر من الإفساد في الأرض، كما قال تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا" (الأعراف: ٥٦).

٩. النظام الاقتصادي الإسلامي: يساهم الإسلام في تحقيق العدالة الاقتصادية من خلال منع الربا والغش، ويحث على التجارة العادلة التي تساهم في الاستقرار المالي.

١٠. التسامح والتعايش: الإسلام يدعو إلى التسامح مع الآخرين ويحث على التعايش السلمي، وقال تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ" (الممتحنة: ٨).

١١. التشجيع على العمل الصالح: الإسلام يرى أن العمل الصالح هو أقرب الطرق إلى الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: "خير الناس أنفعهم للناس."

الإسلام، بمبادئه الشاملة، يحقق التوازن الكامل بين حاجات الفرد والمجتمع، وبين الدنيا والآخرة، ويمنح الإنسان رسالة واضحة حول كيفية عيش حياة مليئة بالسلام الداخلي والسعادة الخارجية.
هيلين بدأت تشعر بتغير عميق في قلبها، فقد كانت كلمات الإسلام التي سمعتها تخاطب عقلها وتخترق أعماق قلبها. همست في نفسها: "ربما... ربما يكون الإسلام هو ما كنت أبحث عنه طوال حياتي."

انتهى اللقاء، ولكن ما تركه خلفه كان شعورًا جديدًا لا يمكن تجاهله. في تلك اللحظة، شعر الجميع أن شيئًا عميقًا قد تغير فيهم. بالنسبة لهيلين، لم تكن تلك الليلة مجرد نقاش عابر، بل كانت بداية جديدة، بداية تتجه نحو تغيير جذري في حياتها. صحيح أنها لم تتخذ قرارًا بعد، لكن هناك شعورًا قويًا ينبض داخلها، وكأن قلبها بدأ يقترب من شيء كانت تبحث عنه طوال حياتها.

الكلمات التي سمعتها كانت تتسلل إلى أعماقها، وفي كل لحظة كانت تزداد قناعتها بأن ما سمعته ليس مجرد أفكار أو كلمات، بل هو الطريق الذي طالما كانت تفتقده. كان هناك شعور في قلبها، لا

يمكن إنكاره، بأنه ربما تكون الحقيقة التي كانت تبحث عنها طوال سنواتها هي الإسلام.

حين استرجعت كلمات أم زكريا، تذكرت الحديث الشريف: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي". وبدأت ترى أن هذا ليس مجرد كلام ديني، بل هو أسلوب حياة، نظام متكامل يجمع بين الروح والجسد، ويمنح الحياة طعمًا مختلفًا. بينما كانت تتأمل ما جرى في اللقاء، بدأ شعور داخلي يزداد قوة، وكأنها على وشك اتخاذ خطوة كبيرة، خطوة نحو الإسلام. ربما لم يكن القرار قد اتخذ بشكل كامل، لكن قلبها بدأ ينبض بتوجه جديد، باتجاه الحقيقة التي لطالما تاقت إليها.

تلك اللحظة كانت بداية فصل جديد في حياة هيلين، فصل ينبض بأمل لم تختبره من قبل، رغم ما قد يحمله من تحديات. بدت خطواتها الأولى نحجولة، مترددة، لكنها كانت مدفوعة بدفء جديد يلامس قلبها برفق. كأن روحها وجدت وجهتها أخيرًا، وبدأ قلبها يسير بشغف نحو الإسلام، وكأن نورًا خافتًا يشق

طريقه في أعماقها، يهمس لها بأن هذه الرحلة قد تكون أصدق رحلة تخوضها في حياتها.

****

إلى اللقاء في الجزء الثالث من
رواية صديقتي التي أحببتُ دينها.

هَالَةُ عَبْدُ اللهِ الأَشْقَرُ

****

المراجع

ـ القرآن الكريم.

ـ الكتاب المقدس بعهديه (الإنجيل والتوراة).

ـ كتاب بصائر للدكتور /هيثم طلعت.

ـ كتاب براهين وجود الله للدكتور/ سامي عامري

****